عبدالله أوجالان

أورفا

التاريخ، القدسية، واللعنة

الكتاب: أورفا... التاريخ، القدسية، اللعنة

المؤلف: عبد الله أوجلان

ترجمة الطبعة الثانية: زاخو شيار

الطبعة الأولى: ٢٠٠١

الطبعة الثانية: لبنان ٢٠١٩

الطبعة الثالثة: قامشلي ٢٠٢٠

دار شلير للطباعة و النشر– آذار – مارس / ٢٠٢٠

العنوان: القامشلي

weje.vejin@gmail.com
weshanashiler@gmail.com
www.shiler.info

عبدالله أوجالان

أورفا

التاريخ، القدسية، واللعنة

الفهرس

إلى رئاسة المحكمة الجنائية العليا الثامنة في أنقرة..... ٧
تمهيد ٩
مدخل ١٣
الفصل الأول: التاريخ في حوض نهرَي دجلة والفرات
أورفا، رمز القدسية واللعنة..... ٢٥
الفصل الثاني: ما معنى تحديث شريعة سيدنا إبراهيم؟ ٦٥

إلى رئاسة المحكمة الجنائية العليا الثامنة في أنقرة

السادة القضاة

لقد عملتُ على تقديم المرافعة بالشكل الذي ارتأيتُه مناسباً تجاه مذكّرة الاتهام المعنية بدعوى أورفا التي تخص PKK. ذلك أن المرحلة التي مررتُ بها حَتَّمَت عليَّ تقديم مرافعة مطوَّلة وشاملة، وذلك بحُكم الأجواء السياسية السائدة، ولأنها ستُرفَع إلى "محكمة حقوق الإنسان الأوروبية" ضمن إطار المحاكمة التي ينبغي أخذها في الحسبان. وعليه، فإني نظرتُ إلى "دعوى أورفا" أيضاً بأنها جزء من هذا السياق العام. لقد أَعددتُ مرافعةً من جزأَين (الجزآن الأول والثاني من كتاب "من دولة الكهنة السومريين نحو الحضارة الديمقراطية"). إذ يَتَّخذ هذان الجزآن من سياق محاكمة "محكمة حقوق الإنسان الأوروبية" أساساً، ويُشكّلان الإطار العام للمرافعة التي لم أستطع تقديمها بنحو شامل في جلسات محاكمة إمرالي بسبب الظروف السائدة. وقد انتهيتُ من تدوين الجزء الأول، وسأعمل على إنهاء الجزء الثاني في أواخر شهر آب.

وباعتبار أنها مرافعة عامة، فعليَّ التبيان أنها تشكل إطار "مرافعة أورفا" أيضاً. وكامتدادٍ لها، فقد أَعددتُ مرافعةً منفصلة كملحق معني بأورفا ويتكون من ٤٧ صفحة؛ آمِلاً أن تُقَيِّموا توحيدَ كلتا المرافعتين من هذا المنطلق.

وبحكم أن الدعوى الخاصة بي تتعلق بأهم القضايا التي شغلت تاريخ الجمهورية التركية، وأنها معنية عن كثب بأوروبا والشرق الأوسط؛ فقد حَتَّم ذلك عليَّ صياغة سبُل الحل والسرود المتعلقة بالمدنية والديمقراطية طيلة التاريخ البشري. وتُعتَبَر أورفا نموذجاً مصغَّراً لهذا الواقع. على هذا الأساس أُعرب عن تقديري لكم، وأطالب ثانيةً بتقييم هذه الوثيقة، إيماناً مني بأنها ستغدو في المستقبل القريب وثيقة مفيدةً من أجل التأسيس للجمهورية الديمقراطية العلمانية.

١٠ تموز ٢٠٠١

جزيرة إمرالي

عبدالله أوجالان

تمهيد

إلى جانب تحليل علاقة أورفا بمصطلحات التاريخ والقدسية واللعنة، فإن مرافعتي هذه تحلل أيضاً تقاليد النبوّة عموماً وشريعة سيدنا إبراهيم خصوصاً. إذ تتم مُلاقاةُ منطقة أورفا (بماضيها العريق وإنسانيتها) بكافة مقدساتها وأنبيائها وبأولئك الذين لا حصر لهم ممن ساروا على خُطاهم. في هذه النقطة بالتحديد تتجلى أهمية السؤال "ما علاقة PKK بالواقع التاريخي والمرحلي الملموس لأورفا؟".

ما هي تداعياتُ كوني شخصاً من قرية "أومَرلي" القريبة من نهر الفرات، والواقعة في أقاصي شمال منطقة أورفا؟ وما مدى تأثير ذلك على PKK الذي أُعتَبَرُ مؤسِّساً له؟ فهل ثقافة القرية هي التي تسري فيه؟ أم أنها ثقافة أورفا أم القيم الأكثر كونيةً؟ وهل نجح PKK في التحول إلى حركة معاصرة كما يُزعَم؟ لدى التفاتي إلى الوراء، أرى أن الشكل الحديث والمعاصر لتقاليد النبوة هو الذي يطغى على الواقع الأساسي، الذي ترك بصماته على ممارستي. فهل بالإمكان القول حينها أن PKK بجانبه هذا يُعَدُّ حركةً إبراهيمية معاصرة؟ يُلاحَظُ أنه ثمة أَوجُهِ شَبَهٍ ملفتة للنظر فيما بيننا على صعيد الممارسة والنوايا (القيام بهجرة جديدة في الشرق الأوسط؛ الخروج من أورفا والسير على الطريق المتجهة نحو بلاد كنعان على غرار سيدنا إبراهيم؛

الاستقرار على حوافّ جبل الشيخ كما سيدنا موسى؛ والعمل على تفكيك اللعنة). إنني أعمل على تحديث قدسية سيدنا إبراهيم تدريجياً. ذلك أن استهدافَنا للنمارِدة وللأوساط الملعونة يُعَدُّ خطوة تقدمية، ليس على الصعيد القومي والديمقراطي فحسب، بل ومن أجل البشرية أيضاً.

لدى تمعُّننا في أجواء أورفا في عهد سيدنا إبراهيم، سنجد أن خروجه من أورفا قد أثَّر في عموم التاريخ البشري. ذلك أن البشرية المولودة في مدينة أورفا والمناطق المحيطة بها، قد أثبتت جدارتها حقاً تجاه ذلك باتِّسامها بالطابع الكوني. والحال هذه، فماذا نجد فيها راهناً؟ إننا نجد أورفا اليوم في الصفوف الخلفية، وكأن اللعنة حلت عليها. لكنها من جهة أخرى وجهاً لوجهٍ أمام نهضةٍ وميلادٍ جديدَين.

من هنا، بإمكان PKK النجاح في مواكبةِ العصر بنحوٍ مثالي، وفي تحويل الديمقراطية الطبيعية المفقودة منذ عهد المجتمع الزراعي النيوليتي إلى أهم وأرقى أجزاء التركيبة الجديدة للحضارة الجديدة الراهنة. وذلك من خلال تجسيدِ وتطبيقِ الشكل المعاصر لتقاليد سيدنا إبراهيم بصفته من أوائل مؤسسي مدينة أورفا وثقافة النبوة فيها، ومن خلال تحليلاته حول الحضارة الديمقراطية. بهذا النحو، سيغدو بإمكان تقاليد سيدنا إبراهيم أن تصبح عالميةً مرةً ثانيةً وفق المعايير المعاصرة، وأن تتحول إلى إرث زاخر مشترك للبشرية جمعاء.

بالتأسيس على ذلك، سيصبح بمقدور أورفا الحديثة، وبالتالي الشرق الأوسط الحديث، أن يبلغا مكانةً تليق بدورهما التاريخي.

مدخل

تَعود جذور التاريخ والحضارة إلى المجتمع النيوليتي. وقد عُثِرَ في الأقسام العُلوية من نهرَي دجلة والفرات على بقايا المجتمع النيوليتي، الذي يَعود إلى أقدمِ تاريخٍ على الإطلاق حتى الآن. إذ يُجمِع المؤرخون جميعاً على أن أعظم ثورة في التاريخ هي الانتقال إلى تلك الحياة المستقرة.

بإمكان أيّ مُشاهِدٍ نبيهٍ أن يُحصي المئات من التلال الترابية بمجرد مروره -ولو بالسيارة- من حوض دجلة والفرات، لا سيما لدى مروره من مُدُنِ أورفا وديار بكر وماردين والمناطق المحيطة بها. فانطلاقاً من البقايا التي تَعود إلى المجتمع النيوليتي الزراعي، والتي نصادفها في حفريات العديد من التلال الترابية في أورفا، يتمّ إرجاع تاريخ أُولى مراحل الاستقرار هناك إلى أعوام ١٥٠٠٠ قبل الميلاد. ومع ظهور التمايز الطبقي في أحضان المجتمع الزراعي، يبدأ التمدن والتدول بالتطور سريعاً. وتبدأ مرحلة جديدة مع التمدن. إذ تبرز أولوية نشر المدنية المبتدئة مع السومريين من ميزوبوتاميا السفلى نحو عموم ميزوبوتاميا. ومع التوجه نحو أعوام ٢٠٠٠ ق.م، تتسارع وتيرة انفتاح السومريين على الخارج وتأسيس المستعمَرات.

تتشكل أهم المستعمَرات السومرية على ضفاف نهرَي دجلة والفرات، وعلى الطرق التجارية، وفي الأماكن التي تتوافر فيها

المعادن والأخشاب. تُعَدُّ أورفا (كل الكلمات التي تبدأ بـ"أور Ur"، مثل: أور، أوروك، أورفا؛ هي كلمات سومرية. وتعني أماكن الاستقرار على التلال) وجوارها أماكن انتشرت فيها المستعمَرات السومرية بكثرة حوالي أعوام ٢٠٠٠ ق.م. ومع ظهور الاستعمار، يُلاحَظ أن الآلهة -أي الطبقة الحاكمة- لم تُشَكِّل جواباً لأنين البشرية التي باتت وجهاً لوجه أمام حياة يائسة مليئة بالآلام الكبيرة متجسدةً في أنين النبي أيوب.

من الواضح أن أسطورة النبي أيوب –الذي ما يزال ضريحه موجوداً في أورفا- هي ذات أصول سومرية، وأنها تتزامن مع أزمة المدنية السومرية (أعوام ٢٠٠٠ ق.م). أما رَدُّ أورفا على أزمة المدنية من خلال ظاهرة "النبوّة"، فقد أفضى إلى جعلِ أورفا تنالُ شرفَ كونِها "مدينة الأنبياء". هكذا، فإن هذه التقاليد التي بدأت كـ"مقاومةٍ سلبية" مع سيدنا أيوب، ستتحول مع سيدنا إبراهيم إلى "انطلاقة راديكالية" تشهدها مدينة أورفا للمرة الثانية.

ازدادت وتيرةُ الاستعمار أكثر فأكثر في منطقة أورفا، لا سيما في عهد السلالة البابلية ذات الأصول العمورية، والتي سطعَ نجمها بعد السومريين. وكَرَدّةِ فعلٍ تجاه ذلك، تتطور المعارضة البارزة في التاريخ تحت اسم "النبوّة". إنها أَشبَهُ بالكفاح الذي خاضه المتنورون في راهننا ضد الإمبريالية وعملائها. بالتالي، فإن أورفا بجانبها هذا قد أدت دور المركز في مناهضة الاستعمار لأول مرة في

التاريخ، من خلال الروّاد الأنبياء عموماً، وعلى هدى التقاليد المتجسدة في سيدنا إبراهيم خصوصاً.

أُطلِقَ لقب "نمرود" على ممثل الاستعمار السومري في تلك الفترة. وحسب اللغة الكردية، فإن مفردة "نَمر Nemir" تعني "الخالد"، وكلمة "نَمرود Nemrut" تعني "المَلِك الخالد". فحسب ذهنية المَلِك-الإله، فإن البشر فانون، بينما الملوك يَمنحون أنفسهم صفة الخلود كَونهم آلهة. وقد ترسخت الميثولوجيا السومرية عبر اللغة والمفردات المحلية، وسادت في الأذهان متجسدةً في شخصِ نمرود كممثلٍ لاستعمار أورفا. إذ تعالى نمرود وتميَّزَ عن غيره بصفتِه إلهاً خالداً يرمز إلى ممثل الطبقة الإدارية الحاكمة السومرية في أورفا آنذاك. في حين أن المجموعات الشعبية المحلية المنضوية تحت حُكمه –لا سيما الكُرد بنسبة كبرى- كانت مُكلَّفة بخدمته بصفتها عباداً فانين. علاوةً على أننا ندرك من ذلك أن الرديف لمفردة "نمرود" في اللغة المحلية قد استُخدِمَ كرمزٍ لشرعنةِ التمايز والامتيازات الطبقية.

يدلّ صراع سيدنا إبراهيم ضد نمرود في جوهره على المقاومة ونضال الحرية الذي تخوضه المجموعات الشعبية المحلية ضد السومريين والبابليين بصفتهم ممثلي الإمبريالية الاستعمارية. ويُدرَكُ من البحوث أن أصول العبريين تَعُود إلى منطقة أورفا ومنطقة حَرّان (والتي تعني في اللغة السومرية "تقاطُع الطُّرُقات الأربعة") الحاليتَين، واللتَين كانتا مستعمَرتَين سومريتَين. هذه المغامرة التي

حصلت في عهد المَلِك البابلي حمورابي حوالي أعوام ١٨٠٠ ق.م على وجه التخمين، تُشبِه حركةَ قبيلةٍ تضاربَت مصالحُها مع نمرود (مَلِك تلك المدينة)، إذ ينتشر هذا الاصطلاح كلقَبٍ يشير إلى الملوك. بالمقابل، فإن القبائل الهورية ذات الأصول الآرية والقبائل العمورية ذات الأصول الساميّة، والتي لم تَكُن قد تَعرَّفَت بَعدُ على المدنية؛ قد صارعَت المَلِكَ متحدةً فيما بينها أحياناً وفُرادى أحياناً أخرى. يُلاحَظُ في تقاليد سيدنا إبراهيم أن ثقافتَي كلتا المجموعتَين تأثَّرتا ببعضهما بعضاً.

أما موقعُ أورفا وجوارها، فإنّ بُعدَه بمسافةٍ متساويةٍ عن بلاد سومر وبابل من جهة وعن بلاد مصر والحثيين من جهة أخرى، قد هَيَّأ أجواء مناسبة لخوض نضال الحرية هناك منذ تلك الفترة التاريخية، أي منذ أعوام ٢٠٠٠ ق.م وحتى أعوام ١٢٥٠ق.م. بالتالي، فإن "النبوّة" في حقيقتها هي انعكاس أيديولوجيٌّ (مرتكزٌ إلى المقاومة) للموقع الجغرافي الملائم وللمكانة الاقتصادية المناسِبة. إن الحركة الأولى التي حَطَّمَت الأصنام تُمثّل الضربةَ الأولى التي لحقَت بالدين العبودي. لذا، فهي تتسم بدورٍ تاريخي عظيم. وشُهرةُ تقاليد سيدنا إبراهيم إلى هذه الدرجة، إنما تأتي من إنجازِها لتلك البداية. ذلك أنه لدى إثبات استحالةِ أنْ يكون الإنسانُ إلهاً أو خالداً، فإن الضربة الكبرى تَكون قد لحقَت بالأيديولوجيا التي تُشرعنُ امتيازات الطبقة الحاكمة. وسوف يسلك التاريخُ هذه التقاليد فيما بعد أيضاً، ليغدو ذا نهجٍ مختلفٍ على شكل سلسلةٍ من الأنبياء تَصِلُ

حتى سيدنا محمد. وتُعَدُّ أورفا بمثابة أولِ مركزٍ مقدسٍ لهذا التاريخ، لتلعب القدسُ ثم مكة هذا الدور من بَعدِها.

تصبح منطقة أورفا في نفس الوقت بمثابة مصدر للتاريخ. إذ تقابلَت فيها الثقافتان التاريخيتان العائدتان إلى المجموعات العمورية البدوية الرعوية ذات الأصول الساميّة (والتي تتجه باستمرار من البوادي والصحارى العربية نحو الشمال، أي نحو ميزوبوتاميا) والمجموعات الهورية الزراعية ذات الأصول الآرية في الشمال. فاشتبكَت تلك المجموعات فيما بينها أحياناً، إلا إنها غالباً ما اعتادت امتهان التجارة في المستعمَرات السومرية. وعليه، فإنّ تَطوُّر المعارضة بأسهل الأشكال ضد النظام السومري، هو على علاقة بهذا الواقع المادي الملموس. ذلك أنّ تَعدُّد الثقافات يعني تعدد الذهنيات.

ونظراً لأنّ أورفا هي واحدةٌ من المناطق التي تقع في الأقاصي، فليس سهلاً بسط النفوذ الصارم عليها. والأهمّ من كل ذلك، هو أنّ أشكال العبادةِ السائدة في الذهنيات المحلية أيضاً تعاند في التشبث بوجودها. فبينما تتجسد إشارة التمرد على نمرودِ أورفا خلال فترات الأزمات العامة في المقاومة السلبية عبر مثال سيدنا أيوب، فإن هذا التمرد يبرز في العصور الوسطى من خلال أسطورة سيدنا إبراهيم. هذا وثمة العديد من الأماكن والأساطير النبوية الأخرى في منطقة أورفا. وانطلاقاً من الأساطير التي تتحدث عن الاستعمار السومري الإمبريالي الخارجي وعن نمرود الذي يمثله، ومن الأساطير التي

تتحدث عن الأنبياء بصفتهم من أوائل المناهضين له؛ فإننا ندرك ونلاحظ أن أورفا اضطرَّت لأداء دورها كساحةِ صراعٍ طويلِ الأمد. ويتعزز هذا الاحتمال من خلال: خاصيات أورفا الجغرافية، خصوبة تربتها، ملاءمة مناخها، هويتها الثقافية، ومسارها التاريخي.

وسوف تؤدي منطقة القدس دوراً مشابهاً فيما بعد. فبينما لعبت أورفا هذا الدور ضد الإمبريالية السومرية على الأغلب، فإن القدس ستلعب دورها هذا بالأكثر تجاه الإمبريالية المصرية العبودية. وعليه، فإنّ كِلا المكانَين يُعَدّان مهدَ الأنبياء وكنايةً عن مركزٍ للمعارضة. وانطلاقاً من منزلتهما هذه، فإن كِلتا المدينتَين (والمناطق المجاورة لهما) ستَبرزان على مسرح التاريخ كمركزَين أساسيَّين للأديان التوحيدية اعتباراً من أعوام ٢٠٠٠ ق.م. وستُحافظ أورفا على مكانتها المركزية تلك بدءاً من هجرة سيدنا إبراهيم منها نحو القدس، وحتى دعوةِ السلالة الأبجرية الحاكمة آنذاك لسيدنا عيسى إلى أورفا. ويتأتى الانتقال المتبادل بين هذين المكانين طيلة أَلفَي عام من منزلتهما التاريخية تلك. كما إن هذَين المركزَين اللذَين تَخَمَّرَت فيهما الأديان التوحيدية، يُمثّلان الأوساط الثقافية التي ازدهرت فيها آمال الحرية آنذاك لدرجةِ التقديس. وتُعَدّ مناهَضةُ هاتَين المدينتَين للعبودية الصارمة عاملاً رئيسياً وراء استذكارهما كمكانَين مقدّسَين حتى في راهننا. وبما أن دورهما عظيم للغاية، فإن مكانتهما في الذاكرة البشرية أيضاً عظيمة لا يمكن نسيانها.

في الحقيقة، إنّ سيدنا إبراهيم، الذي يُعَدُّ من أوائل المؤسِّسين للثقافة العبرية، ليس مجردَ زعيمٍ للقبيلة العبرية فحسب. بل وله أواصر كثيبة مع الهوريين الذين كانوا حينها مجموعة إثنية حاكمة في أورفا. كما إن هذه الثقافة أثَّرت في العبريين متجسدةً في التقاليد الإبراهيمية. هذه هي المقاربة الأصح. وثمة بعض الدلائل الأتيمولوجية التي تشير إلى ذلك بوضوح.

يُلاحَظ أن قبيلة سيدنا إبراهيم سعت إلى الاستقرار في مصر في أعوام ١٧٠٠ ق.م. إن خروجها من أورفا وحرّان، واستقرارها في مصر، يَعكسُ مستوى تَطوُّر التجارة والتنقل. وبنحو ملموس أكثر، فبإمكاننا تفسير هذا التطور، الذي نستطيع تسميته أيضاً بـ"النهج العبري"، على أنه حكايةُ تَكاثُفِ الميثولوجيا السومرية والمصرية وتَحَوُّلِها إلى أديان توحيدية. وحسبما ينعكس في التاريخ، فبالإمكان الابتداء بهذا النهج، الذي بدأه سيدنا إبراهيم وتَحَوَّلَ إلى قصة شهيرة، اعتباراً من خروجه من مراكز المستعمَرات الموجودة في أورفا وجوارها، والتي انتقلت إلى حُكمِ السلالات البابلية والآشورية.

تُعَدُّ أسطورة تحطيم الأصنام لدى سيدنا إبراهيم ترميزاً إلى عدم ثقته بالتقاليد القديمة والميثولوجيا الكامنة وراءها، وإلى تمرده عليها. وقد سادت في تلك الفترة تطلعاتُ العديد من القبائل إلى هكذا حِراكٍ حر، وما نجم عنه من حياةٍ مليئة بالصراع والتصادم. ذلك أن دولةَ المدينة بأيديولوجيتها الرسمية وبثقافات العبادة السائدة فيها تُشَكِّل طرفاً مضاداً. فظاهرةُ نشرِ المجتمع الطبقيِّ

تُهدِّد المساواة القَبَلية. ونظراً لأن منطقة أورفا تُعَدُّ –ربما- من أقدم وأبرز مناطق المجتمع النيوليتي، فمن المحتمل أنّ انتقالها إلى مرحلة المدنية (في نهايات أعوام ٢٠٠٠ ق.م) قد صَيَّرَها مركزاً لحِراكٍ اجتماعي شامل. وعقيدة النبوّة والمزارات المقدسة فيها، والتي ما تزال تُستَذكَر وتُعاش بقوة هناك، إنما تؤكد حصول هذه الظاهرة. إنها بمثابة مركز المعارضة تجاه مراحل الانتقال إلى المجتمع الطبقي ذي الأصول البابلية والآشورية. وما التمرد على الأصنام وتحطيمها سوى تعبير رمزي وأيديولوجي عن ذاك السياق.

وعليه، فمن الوارد اعتبارُ تقاليد سيدنا إبراهيم رمزاً لهذه المنطقة ولبُنيتِها الأيديولوجية الأصيلة. فحسبَ القصة التي ما تزال تُروى في أورفا، فإنّ ما تسبَّبَ بقتلِ نمرود (مَلِكُ أو ممثّلُ الآشوريين) هو الذبابة التي دخلت دماغه، وليس السيف. واضحٌ أن الذبابة ترمز إلى العقيدة والأفكار الجديدة. ومثلما شُوهِدَ في انهيار كل الأنظمة الدوغمائية، فإنّ الأمر الأكثر وضوحاً، هو أن الحلّ يكمن في الذبابة التي تدخل دماغ النظام العبودي، أي في أشكال العقائد والأفكار الجديدة التي تستهدف البنية العقائدية والمعنوية لذاك النظام. أما ما نَجَحَ فيه العنف الفظّ، داخلياً كان أم خارجياً، فهو إتمامُ تَحَقُّقِ الانهيار ذاك من خلال إلحاق عدة ضربات عنيفة فظة به.

وإذا كان سيدنا إبراهيم ما يزال يُستَذكَر كشخصية مقدسة، فإن الحقيقة الأساسية التي تكمن وراء ذلك تتجسد في النظر إليه كرمزٍ لكل الشخصيات والحِراكات التي فتحَت أُولى الثغرات في نظام

نمرود، أي في نظام الآلهة-الملوك. إذ إن البشرية تدرك جيداً ما الذي تُثَمِّنُه. ولكن، ثمة شكوك حول مدى إدراك المثقف الغارق في الحاضر المحض لهذا الأمر. فضلاً عن ذلك، فإذا كان سيدنا موسى يُستَذكَرُ دوماً كاسمٍ عظيم، فإن السبب في ذلك يعود إلى كونه أحد الأسماء العظمى التي تمردت على نظام الإله فرعون، فحقَّقَت الانطلاقات الكبرى.

أما القيمة العظمى التي يُرمَزُ إليها في شخصية سيدنا عيسى فتتجسد في: أنه تَصَدّى لوحده نظامَ روما المروّع، الذي تأسس وتربَّع على ذهن البشرية وروحها وعلى كل ما يشير إلى الشخصية المتطورة منتهجاً في ذلك أقصى درجات الظلم والذل؛ وأنه تصدى لسلطة الكهنة العميلة، التي سَخَّرَت أسماء الأنبياء الفاضلين لخدمة مصالحها الأشنع على الإطلاق؛ وأنه فَدى بذاته في سبيل ذلك، وفَضَّلَ أنْ يصبح شرفَ وضمير البشرية على أن يتمتع بكل القيم والإمكانات المادية في الحياة؛ وأنه تصدى بمفرده لنظام العبودية المطلقة الحاكمة، وتَحَمَّل أشد أنواع التعذيب، ودفع حياتَه ثمناً لذلك، واستَمعَ لصوت ضميره أساساً، دون أن يفكر في الاستراتيجية أو التكتيك الذي عليه اتِّباعه. ولأجل ذلك بالتحديد، فإن ثُلُثَ البشرية تَستذكره دوماً بأسمى المشاعر والعواطف. ذلك أن أعظم سياسة سديدة لا يمكن إلا أن تَكون كذلك، بعقيدتها وبجانبها المعنوي وبطابعها الكوني.

بالتالي، فمن عظيم الأهمية إيضاح مضمون مصطلحَي "القدسية" و"اللعنة". وهذا يمرُّ بصورةٍ خاصة من معرفة أورفا، التي تُعَدُّ مَهدَ كِلا المصطلحَين. ذلك أن أورفا تحتضن بين ثناياها الظروفَ الاجتماعية التي شهدَت القدسية والخطيئة واللعنة أكثر من غيرها. إذ تَعُودُ قدسيتها إلى ما دَرَّته على البشرية لأول مرة من الحبوب والفواكه والحيوانات المُدَجَّنة. وقُدسيةُ الخبز والشراب والحليب إنما ترمز إلى هذا الجانب من الحقيقة. وكأن هذا الوضع باتَ حالةً وراثية لدى الكرد، إذ يُعاشُ بقوة في راهننا حتى في ظل سيادة اللعنة. أما اللعنة التي تتجسد في شخص النماردة، فبدأت مع الاستعمار والاستغلال الطبقي والدولتي. لكنّ الجواب البارز في أورفا ضد ذلك سيتمثل هذه المرة في الحركات النبوية المقدسة. أما اليوم، فإن أورفا تقبع في الخلف تماماً وهي تعاني من اللعنة.

من المعلوم أنني خضتُ صراعاً عتيداً تجاه هذه اللعنة، وذلك من خلال حركة الحرية التي أسَّستُها، وكذلك بصفتي ابن مدينة أورفا. وعليه، فإن كل الآثام التي ارتكبها الكرد تنبع من عدم تَبَنّيهم الجريء والقوي لكل مقدساتهم تلك. فأنْ تَمتلك كل هذه المقدسات، وأن لا تصبح مجتمعاً حراً لائقاً بها؛ إنما يفضي إلى ارتكاب الإثم بصورة عامة.

إن مفردة "اللعنة" هي مصطلح أخلاقي أُطلِقَ على كل حركات الاحتلال والاستيلاء والدمار والنهب والسلب، التي شهدها الكرد عموماً ومنطقة أورفا خصوصاً على طول التاريخ. وهي تدلُّ دينياً

على أقصى درجات الإثم. ونظراً لأنه ما من مجتمع شهد هذا الكمّ من الاحتلال والاستيلاء والدمار بنحو مستمر ومتداخل على مر تاريخه، فقد حُكِمَ على الكرد أن يعانوا من الظُلمات والمخاضات بصفتهم شعباً ملعوناً أكثر من غيره، لا حَظَّ له ولا مستقبل. لقد استشرت اللعنة على يد كافة أشكال المدنية وعن طريق القوى النخبوية للمدنية الأخيرة، لتتصاعد على موجات متوالية في هيئةِ كوارث ونكباتٍ استمرت قروناً مديدة، ولتأخذ حالةً نافذةً وراسخة في راهننا، ولتَحكُمَ على الكردِ بجعلهم مجتمعاً ملعوناً غارقاً في الظلام الدامس ويعاني من أقصى درجات الألم والخجل من الذات. إنّ هذه الحقائق ترسم الملامح المأساوية للقدسية والخطيئة واللعنة لدى الكرد. وتُعَدُّ أورفا نموذجاً مُصَغَّراً عن كل ذلك.

الفصل الأول

التاريخ في حوض نهرَي دجلة والفرات

أورفا، رمز القدسية واللعنة

صَدَقَ مَن قال أن "التاريخ يبدأ من سومر". لكنّ تاريخ سومر يبدأ من الأماكن التي ينبع منها نهرا دجلة والفرات وفروعهما، أي من ميزوبوتاميا العليا التي تتألف من الجبال الشاهقة ومن الهضاب والسهول التي تحيط بها سلسلة جبال طوروس وزاغروس. إنها المناطق التي أطلقَت عليها آنذاك العديدُ من الشعوب -وعلى رأسها السومريون- أسماء مختلفة، كلٌّ حسب لغته؛ من قبيل: "جوندوانا Gondwana" و"كاردوانا Karduanna" و"أورارتي Urarti"؛ والتي تعني بمجملها "البلاد المرتفعة".

تشير البحوث العلمية الأخيرة إلى أن أفضل الظروف الجغرافية تشكلت في هذه الأماكن من أجل تدجين الحيوانات وإنجاز الثورة الزراعية لأول مرة. هكذا تشكلت هناك ثقافة غنية على صعيد تنوع النباتات المفيدة والحيوانات المدجنة. كما إن مناخَها مناسبٌ للريِّ الطبيعي. وقد خَوَّلَتها ظروفها هذه لأن تَغدو الساحةَ التي تجمعت فيها نماذج الإنسان الأول في مراحل باكرة جداً، لتشهد من حينها جمع الثمار وصيد الحيوانات.

وعلى وجه التخمين، فعندما انطلقت أولى المجموعات البشرية من إفريقيا الشمالية نحو الشرق الأوسط قبل حوالي المليون أو المليون ونصف المليون سنة، اضطرّت تلك المجموعات للإفادة من هذه المنطقة كأفضل ساحة للعيش، فتحولت المنطقة إلى مكان للاستقرار. ذلك أنه ما من منطقة أخرى مناسبة للاستقرار إلى هذه الدرجة. وقد ثَبُتَ بالإجماع أن هذه الجغرافيا كانت أفضلَ مكان مُجَرَّبٍ في العالم من أجل العيش، سواء في كل عصرٍ جليدي أو فيما بين العصور الجليدية.

مع انتهاء العصر الجليدي الأخير قبل حوالي عشرين ألف سنة، يبدأ العصر المازوليتي الذي يشمل الحقبة الانتقالية ما بين العصرَين الحجريَّين القديم والحديث. وثمة الكثير من البقايا الأثرية المتبقية من ذاك العصر في المنطقة. وبانتهاء تلك الحقبة قبل حوالي اثنَي عشرَ ألف سنة، يبدأ العصر النيوليتي (العصر الحجري المصقول). يبدو أن فترةً من الجفاف لعبت دوراً مهماً في تلك الحقبة. فحصيلة التجربة المتراكمة والتغير الملحوظ في المناخ، تحققت أعظم ثورة إنسانية اعتماداً على الزراعة وتدجين الحيوانات. تشير البقايا الأثرية إلى أنه بالمقدورِ إرجاعُ هذه الثورة إلى أعوام ١١٠٠٠ ق.م. ويمكننا تَلَمُّس بقايا تلك الثورة في جميع المساحات التي يلتقي فيها حوض دجلة والفرات مع الجبال.

يُلاحَظُ أنّ أَقدَمَ نظامٍ للاستقرار تحقَّقَ في منطقة أورفا. إذ يمتد تاريخ أُولى أماكن الاستقرار المُوَثَّقة في كلٍّ من "نوالا جوري"

و"غوباكلي تبه" إلى أعوام ١١٠٠٠ ق.م. كما تم إثباتُ أن أولى الأماكن التي شَهدَت بناء المعابد كانت في هذه الأراضي.

وعلى الأغلب، فإن المناطق المعروفة اليوم بأورفا وديار بكر وماردين والمناطق المجاورة لها كانت مراكز ذلك العصر. وما تزال التلال الترابية، التي تتراءى جلياً حتى لعابري السبيل، تنتصب أمامنا ككَنزٍ تاريخي فريد يَعود إلى تلك الحقبة. وما تزال المئات منها تنتظر التنقيب. بإمكان أي حفريات أثرية دقيقة أن تكشف النقاب عن العديد من تفاصيل أول ثورة عظيمة شهدتها البشرية في هذه التلال. لا يعود هذا إلى اتّسام المنطقة بالخصائص الاستثنائية، بل إلى تَحَلّيها بأفضل العوامل الجغرافية الملائمة.

إذ تتميز تلك المناطق الجبلية والسهلية بتنوعٍ وفير من الأشجار والنباتات المُثلى، ومن الحيوانات التي يمكن تدجينها. أما الكهوف والمغارات الطبيعية، فشكّلت أول أماكن السكن الآمِنة المناسبة. هذا إلى جانب الأنهار الكبرى والعديد من الروافد والينابيع الموجودة في كل مكان. ولدى اتحاد إمكانيات الري وغزارة الأمطار مع وفرة النباتات والحيوانات وإمكانيات السكن، فإن ظروفاً مثاليةً تظهر إلى الميدان من أجل العيش هناك. هذه هي الخصائص والأسباب التي جعلت المنطقة تُشكّل مهد الحضارات الإنسانية. فقد أفضى تَطوُّر الزراعة إلى الحياة القروية المستقرة، وإلى إنجاز نوعٍ من الثورة القروية التي سبقت ثورة المدينة، والتي فتحت الطريق أمام تغيرات كبرى في وعي وذهن الإنسان وفي عالمه الروحي.

تُعَدّ وفرة الإنتاج الغذائي، والتزايد السكاني، وتَطوُّر أماكن السكن والاستقرار من أكثر الجوانب اللافتة للنظر في تاريخ هذه المنطقة. فقد تجذرت ثقافة الزراعة النيوليتية فيها لدرجة أنها ما تزال تؤثر في ذهنية الإنسان وسلوكياته الأساسية. إذ سادت ثقافة المجتمع الأمومي هناك لفترة طويلة، وتطورت الزراعة وتدجين الحيوانات كنشاط أساسي متمحور حول المرأة. زد على ذلك أن الحياة المستقرة كانت ضرورية للمرأة بالأكثر. فإنجاب وتربية الأطفال وبروز ثقافة الحقول والمرابي والحظائر استوجَبَ الاستقرار أكثر.

وقد عَظَّمَت هذه الظروف من دور المرأة، وأسفرت عن تَشكُّل ثقافة الإلهة الأم. لهذا السبب اتّخَذَت أُولى الرموز الإلهية شكلَ المرأة، وليس الرجل، وطَغَت الصبغة الأنثوية على بنية اللغة. هذا وتَرجعُ الإلهات اللواتي رُمِزَ إليهن بالنجوم وأُطلِقَ عليهن اسم "ستار Star" إلى تلك الحقبة (كلمة ستار مشتقة من إستارك Istark وستيرك Sterk، وهي تعني "النجمة"). كما تأسست حينذاك أولى المعابد في القرى، إذ ثَبُت ذلك من خلال اللُّقى الأثرية الموجودة.

تُعَدّ منطقة أورفا من أكبر مراكز هذه الثورة. فظروفها المُثلى لأجل الزراعة وتربية الحيوانات منذ الألف العاشر قبل الميلاد، صَيَّرَتها مهدَ العصر النيوليتي طيلة العصور التاريخية المديدة. وتدل مئات المرتفعات الترابية والكهوف المجاورة للمياه على مدى رسوخ الاستقرار السكني وانتشاره آنذاك بنظامٍ لا يمكن مصادفته في أية بقعة أخرى من العالم. وعليه، يمكن القول أن أورفا وجوارها كانت

مراكز العصر النيوليتي طيلة عشرة آلاف سنة. فكيفما تُعَدّ أوروبا مركز العصر الرأسمالي الراهن منذ خمسمئة سنة، فإن عَيشَ البشرية لأطول عصور الاستقرار في تلك المناطق تَرَكَ آثاراً لا يمكن محوها في تاريخها اللاحق أيضاً.

وتاريخ سومر ومصر هو امتداد طبيعي لذاك التاريخ. ذلك أن البشرية التي اكتسبَت في تلك المناطق تجارب غنية بشأن حياة الاستقرار والزراعة وتربية الحيوان بكل تقنياتها وعلومها، وبأيديولوجيتها وقوتها الإدارية، انحدرَت فيما بعد نحو الأسفل، أي نحو ضفاف الأنهار والأراضي الرسوبية المعطاء. وقد أثبتت البقايا الأثرية المُكتَشَفة لاحقاً بنحوٍ أفضل أن الثقافة المنتقلة إلى مصر وسومر ترجع في أصولها إلى تلك المناطق. وبطبيعة الحال، فمن غير الممكن أن تتحقق الثورة الزراعية في الصحراء العربية أو الإفريقية. فضلاً عن أن الأراضي الرسوبية على ضفاف الأنهار تفتقر إلى الثروة الزراعية والحيوانية التي تُخَوِّلها لتمكينِ الاستقرار الأول. يوضح هذا الواقع تماماً أسباب بدء التاريخ في الحوض الأعلى لما بين النهرين، وبالأخص في منطقة أورفا وجوارها.

لنؤكد ثانيةً أن ذاك العصر هو عصر الزراعة وتربية الحيوان، وهو عصر غرس الأشجار وبناء القرى وتأسيس المعابد وإعلاء أول رمزٍ إلهي إلى السماء. فالمجتمع الأمومي المنظَّم متمحوراً حول المرأة هو العصر الذي شهد ولادةً قويةً لثقافة الإلهة الأم. وما يزال تأثير ذاك العصر على البشرية مستمراً حتى يومنا. ذلك أنّ كل مكان سادت

فيه الزراعة وتربية الحيوان والثقافة الأمومية، يَكون حاملاً لخصائص المكان الأصلي الذي تحققت فيه تلك الحقبة، ومتأثراً بهذه الثورة التاريخية الأولى، التي انتشرت في كل الأرجاء على موجاتٍ متتالية.

وأنْ تَكونَ منطقةُ أورفا مركزَ تلك الحقبة، فإنّ هذا يُحتِّم شرح بعض المصطلحات من قبيل: التاريخ، القدسية واللعنة. فإذا تَمَكَّنّا من تحليل هذه المصطلحات بنحو سديد، فسنَصِل حينها إلى التنوير الذهني، الذي ينبغي أن يُشَكِّل الأرضيةَ لإنجاز النهضة الشرق أوسطية. ومثلما بَيَّنّا أعلاه، فإن التاريخ يبدأ من سومر ومصر. إلا أنه يبدأ هناك بعد الثورة الزراعية المتحققة في أورفا وجوارها. إذ إنه، وبعد أنْ تشكلت هذه المراكز الحضارية، شهدت الطرق والقوافل بين هذه المنطقة وتلك المراكز المدينية بدايةَ النشاط كأُولى الإشارات على ظهور الحضارة.

انتشرت كل هذه التقنيات والأفكار الممهِّدة للحضارة عبر هذه الطرق إلى بلاد سومر ومصر، ثم رويداً رويداً إلى الشمال والشرق والغرب. وإذا اعتمدنا أعوامَ الألف العاشر قبل الميلاد على وجهِ التقريبِ معياراً، فإن كل البراهين التاريخية تشير إلى حصول الاستقرار والانتشار من هذه المنطقة نحو الجهات الأربعة على فترات تتراوح بين الألف والألفَي عام. إذ تبدأ أُولى أمارات الحضارتَين السومرية والمصرية بالبروز بعد حوالي ألفَي عام من بدء تلك الحقبة، التي بدأت في الألف السادس قبل الميلاد وأُطلِقَت عليها

تسميةُ "ثقافة تل حلف"، والتي تُعَدُّ العصر الزراعي المتميزَ بأَوجِ النضوج والتمأسُس. بمعنى آخر، فإن أعوام ٤٠٠٠-٣٠٠٠ ق.م هي أعوام ولادة سومر ثم مصر. أي أن جميع القيم والثقافات الحضارية انتقلت إليهما من ميزوبوتاميا العليا، أي من القوس الداخلي لسلسلة جبال طوروس وزاغروس.

بعد مرور حوالي ألف سنةٍ على الثورة والحضارة المدينية التي تصاعدت في بلاد سومر في الألف الثالث قبل الميلاد، تبدأ بنشر أولى مستوطَناتها و"أُور-اتها" (كلمة "أور Ur" تعني المدينة أو أماكن السكن المرتفعة) نحو ميزوبوتاميا العليا التي كانوا يسمُّونها "البلاد المرتفعة". هكذا، فإن أورفا وحرّان وكاركامش وسامسات هي أُولى أهمّ مراكز الاستيطان التي عَرفَها التاريخ. وأورفا بالذات مدينةٌ مبنية على تلٍّ مرتفع مجاورٍ لينبوع ماء. وقد تَشَكَّلَت بُحيرة "خليل الرحمن" من مياه ذاك الينبوع. هذا وثمة تطابُق بين مفردتَي الماء والرحمة، إذ يدلان على نفس المعنى. هكذا تم الانتقال من عصر القرية إلى عصر المدينة. بالتالي، فإن التاريخ المكتوب لأورفا وجوارها يبدأ حوالي أعوام الألف الثاني قبل الميلاد، مستمراً حتى راهننا. بالإمكان تناول التاريخ كرونولوجياً (أي تقسيمه إلى مراحل زمنية واضحة) بكل سهولة بعد تلك الفترة. إذ يَسهل علينا تحديد وشرح ما تعنيه كل مرحلة منها.

التاريخ مخفي في بداياته. بالتالي، فالذين يعجزون عن تحليل بداياتهم، فإن معرفتهم التاريخية تُشَكّل أرضية الجهل الذي يتسبب

بكل الكوارث. ذلك أنه لا يمكن غض الطرف عن حقيقةِ أنْ يَكونَ مكانٌ ما "مهدَ البشرية". فهل من إنسان يمكنه الزعم قائلاً: "إني لَم أترعرع في المهد"؟ وما دام هذا مستحيل، فإننا لن نستطيعَ فهم قيمةِ البشرية وحقيقتها، من دون إدراك حقيقة "المهد" وإيفائها حقَّها. فكيف لكَ أن تدّعي أنّ "هذا ليس ماضيَّ أنا"، بعد أن رَعَتْكَ ورَبَّتْكَ هذه الأم في المهد لآلاف السنين؟! فإذا قلتَ: "أنا ثمرةُ المجتمع الطبقي المتشكل في المدن، وحسبي هذا"، فإنّ تاريخك لا يدل حينها على تاريخ البشرية، بل على التاريخ الطبقي.

إن مرحلة المهد ليست مجرد فترة البكاء وطلب الحليب. بل هي المرحلة التي تشهد بدايةَ تَشكُّل اللغة والفكر، وبدايةَ المسير، وبدايةَ التعرف على الطبيعة والمجتمع. إنها المرحلة التي تشكَّلت فيها البشرية وتعرَّفَت على الحياة بكل صفائها وبَساطتها، دون اللجوء إلى القمع أو الاستغلال أو اللصوصية، بل اعتماداً -فقط وفقط- على الكدح. من المؤكد أن التاريخ بدأ بهذا الشكل في أراضينا، وأن هذا هو مضمونه.

وعليه، فالأصحُّ هو الانطلاق من مهدنا، كي نُضفي على البشرية قيمَها الرئيسية. من هنا، فسيكون أمراً في محله إيمانُنا بأنّ ركائز البشرية تكمن لدينا. وعلينا ألاّ نشكك في ذلك بتاتاً. أما تاريخ الطبقات، فقد دُوِّن بعد ذلك. كذلك أمرُ تدوينِ التواريخ باسمِ الشخصيات المهمة والسلالات الحاكمة والهويات الإلهية. وهي ذاتُها التواريخُ التي سادَ فيها الرياء والكذب على حساب الحقيقة.

بالتالي، واحتراماً منا للتاريخ الحقيقي، فإن عدم الإيمان بتلك التواريخ هو الأصح. ولدى المقارنة بين أورفا والتاريخ، فسنجِدُ أن هذه الحقيقةَ وهذا التناقضَ يلفتان الأنظار ويُنَبِّهاننا.

ما يزال هناك نمطان من التاريخ في جوار أورفا: التاريخ الحقيقي المُشيَّد بكدح البشر، والتاريخ المزيف الذي سَطَّرَه المتربعون على هذه القيم المشيَّدة، والذين استَولوا عليها متَّبِعين شتى أنواع القمع والضغط والمكر والزيف والرياء. وغالباً ما تَسَبَّب هذا التناقض التاريخي في عجزِ أناس هذه المنطقة عن تطويرِ عقولهم. إذ تحجَّرَت عقولهم وتحوَّلَت إلى رماد مع ظهور المجتمع الطبقي. ومن دون تحليل وحل ذلك، لن تَكونَ هناك القابلية للاستيعاب أبداً.

لدى الحديث عن أورفا، فإن "القدسية" هي المصطلح الرئيسي الآخر الذي علينا تحليله. فما هي القدسية؟ وكيف بدأت روابطُها مع هذا المكان؟ سيَكون السومريون مرجعاً لنا في هذا الشأن أيضاً. فمُفردة "القدسية" في اللغة السومرية مشتقةٌ من كلمة "كاوتا Kauta"، وهي مرادفة لمعنى "الغذاء"، الذي يدل على كلّ شيء مفيد يأتي من النبات والحيوان. وعليه، لطالما كان "الغذاء" محلّ تبجيل وافتتان في بداية البشرية، لأنها به تستطيع الاستمرار في حياتها. وبما أنه ما من شيء أثمن من الحياة، فبالتالي، ما من شيء أثمن من الغذاء الذي يُؤَمِّن سيرورة الحياة. وكلُّ شيء ثمين بالنسبة للبشرية جمعاء، يتم السمو به وتبجيله وتأليهه، أي تقديسه. بمعنى آخر، فالقدسية هي الهوية التي ترمز إلى أهم الأشياء والمواد التي

تَمَكُّنُ سيرورةَ البشرية. وبما أن "الغذاء" هو أثمن مادة لأجل سيرورة البشرية، فمن المفهوم تماماً النظر إليه على أنه القداسة بعينِها. وفي هذا الشأن أيضاً نجد أنّ الدُّهاة السومريين أدركوا ماهية الأمر تماماً، وأطلقوا عليه الاسم بموجب ذلك.

إن القَداسةَ عاطفةٌ منتشرة في أورفا وجوارها. ذلك أن كل مكان فيها مليء بالمقدسات. هذا ما يعني أن الغذاء والخيرات تنبثق من كل مكان في المنطقة. ما يتسترُ هنا هو نوعٌ من تاريخ الخير والبركة. إنه تاريخ مخفي. لكنه، وبسبب أهميته العظمى، يترك في ذاكرة المجتمع آثاراً لا يمكن محوها، ويستحيل بالتالي نسيانه. بمعنى آخر، فإن تاريخ الخيرات هو جوهر مصطلح "أورفا المقدسة". ذلك أن البشرية جمعاء (وليس سكان المنطقة فحسب) اقتاتت، وما تزال تقتات من هذه الخيرات. فمَن منا يمكنه أن يستغني اليوم عن القمح والشعير والذرة والعدس والعنب والتين وغيرها من قائمة خيراتنا اللامحدودة؟ هذه هي الخيرات والغِلال التي اعتَبَرها السومريون مقدسة، فقاموا بتأليهها واحتفَوا بها. إنها التواريخ المخفية.

ما الذي يكمن خلف "الغذاء"؟ إنه الكدح، كدح الأم. فهي خالقتُه ومكتشفتُه وراعيتُه. ومَن يدري مدى السعادة والغبطة التي شعرت بها الأم عندما جمعت أولى سنابل القمح التي زرعَتها! كيف لا وهي تدرك أن البشرية لن تستمر إلا بها! وهل ثمة عمل أو نشاط أثمن من ذلك؟ هل يمكن للحروب وظواهر التعذيب أن تَجِد لها

مكاناً هنا؟ فتلك الأم لا تهتم سوى بالإنتاج، ولا تعرف شيئاً سواه، وبه تُمَكِّنُ سيرورةَ الإنسانية. بل وهكذا تُدرك ماهيةَ الإنسانية. هذا هو معنى إنسانيةِ الأمِّ وإنسانيةِ المرأة. إنها رؤية إنسانية تعني في الوقت ذاته "الإنسانيةَ المقدسة".

لقد قَيَّمَ السومريون ذلك بشكل صحيح، وعَدّوا أهمَّ الأدواتِ المستخدَمة في تأمين وتوفير الأغذية والخيرات مقدسةً أيضاً؛ كالمِعزَقة، المحراث، الفأس، وحتى الثيران والأبقار، وغيرها من الأدوات والوسائل الأخرى. بل ولكل واحدة منها إلهها. بمعنى آخر، فإن كل الخيرات وكل ما يفيد في تأمينها من الأرض والهواء والأمطار والشمس والرياح والأشجار والحيوانات، يتم تأليهها أو تمثيلها بإله.

وتتسع قائمة المقدسات أكثر فأكثر. إن السومريين على حق. فالبشرية تتوسع وتتطور وتستمر عبر هذه الخيرات وبأساليبِ وسُبُلِ إنمائها وزيادتها. ليس من السهل أبداً الانتقالُ من إنسان الماضي، الذي كان شبيهاً بالحيوان ويعتمد على الصيد وجمع الثمار، إلى الإنسان المنتِج! إنها ثورة استثنائية ساحرة. ولأجل ذلك يتم تقديس هذه الحقيقة وتأليهها. إذن، فالغذاء الذي هو رديف القدسية، يكمن في أساس التأليه. ولأجل ذلك حَوَّلَ الإنسانُ آلهةَ الخيرِ والبركةِ إلى هويةٍ ساميةٍ قائمةٍ بذاتها، لِما تُقدمُه من فوائد. إنها الهويات الأقرب إليه، والتي رافَقَته على الدوام.

إن تلك الحقبة هي حقبة الآلهة الخصبة والراعية للإنسان دون أن تضطهِده. بل وتشهدُ عصرَ الإلهات الإناث اللواتي يصبحن بركةً وعطاءً ليَهِبْن أنفسهن للإنسان. لذا، كانت القدسية تخصُّ تلك الآلهة. أي أنها كانت ترتكزُ إلى حقيقة الغِلال والخيرات الأساسية. بالتالي، لَم تَكن تلك الآلهةُ تَعرف الزيف أو الرياء أو القمع. والإلهةُ الأم هي أمُّ تلك الآلهة. من الواضح أن هذا هو تاريخُ وحقيقةُ الآلهة. أي أنها آلهةٌ مقدسة ترتكز إلى كدح الإنسان، وتصبحُ هويةً للغِلال والخيرات المقدسة التي تُؤَمِّن الاحتياجات الرئيسية للإنسان، وبذلك تكتسبُ معناها! وبما أن أطراف أورفا مليئة بهذه المقدسات، فإنها تُعتَبَر مليئة بالآلهة أيضاً. هكذا تتكون أورفا المقدسة.

أخذ السومريون تلك الآلهة فيما بعد، وصَيَّروها آلهةً للمجتمع الطبقيّ في معابد الكهنة. فرفعوها إلى السماء، وأضفَوا عليها هالة من الضبابية والغموض. وجعلوها آلهةً تَضرب وتعاقِب وتُقيمُ الطوفان، لتغدو ممثِّلةً للطبقة الصاعدة. أي أنّ تلك الطبقة قد أَلَّهَت نفسها. وهذا النوعُ من التأليه هو دليل على تَعَرُّضِ التاريخ والوعي البشري -لأول مرة- إلى أقصى درجات التشويه والاعتداء والاحتلال. إنه بداية الكذب والرياء والقمع، وبداية نَصبِ شِباك القَدَرِ السيئ القاتم. إنه بداية تأليه الكذب والرياء والظلم. هكذا صُنِعَت الآلهةُ التي تكذب وتعاقِب في معابد الكهنة الذين رفعوها

إلى السماء، بل ودَوَّنوا تاريخَها رسمياً، ثم سَمَوا بها أيّما سُمو، وعَظَّموا شأنها، وعطَفوا عليها تسعاً وتسعين صفة.

هكذا تم تأليهُ طبقة الأسياد المتطفلين المتعاظمين، الذين يُعاقِبون ويَستغِلون ويَنهبون. علماً أن الآلهةَ الذكور العاملون تحت إمرةِ الإلهات الإناث كانوا بجوارهن. وكانوا منتِجين وأصدقاء، ولا يعرفون الكذب أو القمع إطلاقاً. لقد أَنجَز الكهنةُ السومريون هذا العمل بشكل مكشوف للغاية. أي، ولكي ندركَ أنّ هذا حقاً ما فعلوه، فإنهم أنجزوه في هيئة الميثولوجيا والأقاويل، دون اللجوء إلى الفلسفة المعقَّدة أو العلم الذي يُشوِّش العقول. فيما بعد، وكلما تأسست الطبقة الحاكمة، وزَعمَت أنّ الدنيا مُلكٌ لها، كلما تَمَيّزَت آلهتُها بمرتبةِ ولقَبِ الأزلِ والأبد. هكذا صار الحُكامُ حقيقةً كبرى حاسمة، تماماً مثلما حالُ آلهتهم. فراحوا يَفرضون حقيقتَهم هذه (كملوكٍ آلهة) على العِباد العَبيد.

إن موقف سيدنا إبراهيم -الذي يُعرَفُ بانتمائه إلى أورفا- تجاه هذه الكذبة الشنيعة، هو موقف ثمينٌ ويتضمن القدسية الحقيقة، إذ يقول: "لا يمكن لهذه الأصنام أن تَكون آلهة. فأكبرها هو أكثرها جموداً". وعندما رفض نمرود هذه الفكرة، ردَّ عليه سيدنا إبراهيم: "إذاً، لستُ أنا مَن حطَّم الأصنام. بل إن الصنمَ الأكبر هو الذي حطَّمَها جميعاً". وبقوله هذا يُوقِعُ نمرود في الفخ. من الواضح أن الصراع هنا هو صراع أيديولوجي. إذ ثمة صراع بين نظامِ آلهةِ الشعب وبين نظام آلهةِ النماردة، أي أسياد العبيد. فالإلهُ الأوحدُ

لسيدنا إبراهيم يُعبِّر عن وجود الشعب ووحدة صفه. أو بالأحرى، إنه يُعَبِّر عن حقيقة وجودِ ووحدةِ القبائل. أما إنقاذُ الإله من الوثنية، فهو موقف صارمٌ تجاه قوة الكذب العلني.

إن اختيارَ مصطلحِ الإله الأوحد المجردِ والشامل في تلك المرحلة، يُشَكِّلُ رؤيةً تبعث على التأمل العميق، وتحثُّ على رص الصفوف والتقدم. بالتالي، تكتسبُ القدسيةُ هيئةً غير مباشرة، وتُضَيَّقُ مساحتُها لتصبحَ حِكراً على "الله". إلا أنها –على الرغم من ذلك- تعتمد على وحدةِ وقوةِ الشعب. لذا، يتمُّ إطلاقُ تسميةِ "القداسة الإبراهيمية، القداسة النبوية" على مقدسات أورفا في هذه الحملة الثانية، أي على الحملةِ المضادةِ للتأليه الطبقي. إنه تقديسٌ يتسمُ بالمقاومة والتقدمية نسبةً إلى ذاك العصر.

إن هذه القدسية هي وقفةٌ أقرب إلى الحقيقة في صراع الآلهة. وعليه، فما يكمن وراء استذكارِ أورفا (وطن الأنبياء) بهذا الشكل حتى يومنا، هو قدسيةُ الخيرات والكدح، بل ونَعتُهما بصفةِ "المقدس" تحديداً. فـ"أورفا المقدسة" تعني أورفا المرتبطةَ بالنظام الغذائي الزراعي، والمعتمدةَ على الكدح، والمرتكزةَ إلى تقديس وتأليه ثمار الكدح. أما سببُ تسميتِها بـ"وطن الأنبياء"، فيَعودُ إلى كونِها مركزَ الأنبياء والرُّسُل، الذين مَثَّلوا النظام الإلهي للشعب المتمرد على نظام آلهة نمرود، الذي تهجَّم على مقدسات المنطقةِ عبر آلهته الطبقية الكاذبة. هكذا كان التاريخ والقدسيةُ في منطقة أورفا.

بالمقابل، فإن "اللعنة" هي المصطلح المهم الآخر الذي ينبغي شرحه وتحليله. فماذا تعني مفردة "اللعنة"؟ إنها اصطلاح أساسيٌّ ومفتاح. بمعنى آخر، فإن تحليل أورفا مرتبطٌ عن كثب بتحليل اللعنة.

تُطلَق تسميةُ اللعنة على كل ما يُفسِد أو يُشوِّه التاريخ الصحيح والقداسة. أي أنها تعني هجوم الكذابين والظالمين. فمع بدء هجوم اللصوص والمتعجرفين على الكدح والكادحين، تَكونُ مرحلةُ اللعنة قد بدأت. بمعنى آخر، تُطلَقُ صفةُ "اللعنة" على شتى الاعتداءات التي تستهدفُ كل ثمار الكدح والقرى والمدن والحقول والمعابد. يرتبطُ هذا الوضعُ ارتباطاً وثيقاً بالانتقال إلى المجتمع الطبقي. بالتالي، تَرُدُّ البشرية على كل ممارسات وظواهر الاحتلال والعقوبة والنهب والسلب والدمار والرياء والغبن والظلم، والتي لم تشهدها حتى ذاك الوقت، بإطلاق هذا التوصيف عليها جميعاً.

من الواضح أن اللعنة هنا تُعَبِّر عن نقيض القداسة. فبالتزامن مع تصاعد المجتمعِ الطبقيِّ في منطقة أورفا، تَفَجَّرت اللعنة أيضاً بنحوٍ ملحوظ. إذ تكاثرت ثمار الكدح، وازدادت بالمقابل نسبة الغنى. والحال هذه، كان التمايز الطبقي والاعتداء سيتحققان بصورة متداخلة، إذ لن تتمكن هذه المنطقة بعدَ ذلك من التخلص من المُعتَدين والمحتلّين والناهبين. بل كانت اللعنة ستَنصبُ عليها شِباكها. هكذا حَلَّت المأساة محلّ الأعراف والأعياد المقدسة.

وزالَت أعياد القداسة، لتبدأ مرحلةُ المآسي والنحيب والرثاء التي أفضَت إليها اللعنة.

فسابقاً، كانت أصداءُ الموسيقا الدينية والتغني بالقداسة هي السائدة في منطقة أورفا. بل وسيَكونُ في محلّه القولُ أن أورفا كانت أول مركزٍ للموسيقا الدينية في العالم. وقد استمرت حالُها هذه ردحاً طويلاً من الزمن. لكن، ومع حلولِ عصر اللعنة، تركَت هذه الموسيقا مكانَها للأساطير والرثاء والنحيب. فبدأت المرحلة التي بِتنا نسمع فيها "أغاني أورفا الشعبية". إذ تَضَمَّنت تلك الأغاني موسيقا القداسة، التي احتوَت بدَورها على الثورة الزراعية والحيوانية، التي مَدَّت البشرية -لأول مرة- بإمكانية السيرورة من خلال الخيرات الوفيرة والبركة والأمان. أي أنه ثمة أرضيةٌ وطيدةٌ للموسيقا في ثقافة أورفا المتجذرة. فالبشرية تشعر بالنشوة والسعادة عندما تصبح قادرةً على توفير الغذاء. وتتحول هذه النشوة إلى صوتٍ يُولّدُ معه الأغاني الشعبية. فتصنع الموسيقا لمقدساتها وآلهتها أولاً، ثم تَردُّ على اللعنة بالمرثيات. بذلك تَدخلُ الأغاني الحزينةُ تاريخَ الموسيقا في هذه المنطقة.

بمقدورِنا اشتقاقُ العديد من المصطلحات الثقافية الأخرى ارتباطاً بهذه المصطلحات الرئيسية؛ مثل: الرحمة، المزار، الصبر، الندب، الدعاء، البطولة، العبادة، العيد، القَرابة، الشيطنة، والمعبد... الخ. فأياً يَكُن، فإن ثقافة الثورة الزراعية والحيوانية

عريقة عميقة، وأثرت في البشرية جمعاء في كافة العصور وفي جميع القارّات.

كلنا نعلم أن السومريين أطلقوا على الشعبِ الذي صنعَ ذاك العصرَ أسماء مختلفة مثل: "الآريين" التي تعني "أصحاب المحاريث"، و"أورارتي" التي تعني "سكّان البلاد المرتفعة"، و"كوتي" التي تعني "الرُّعاة الرُّحَّل". كل هذه الاصطلاحات ذات جذور سومرية، وتدل على "سكان ميزوبوتاميا العليا". تُسَمّى هذه الثقافة تاريخياً بـ"الثقافة الهندوأوروبية" بمعناها الواسع، وبـ"الثقافة الآرية" بمعناها الضيق. إذ باتت قادرةً على الانتشار حتى الألف الرابع قبل الميلاد بدءاً من سواحل المحيط الهادي والصين إلى سواحل المحيط الأطلسي وإلى أقاصي الحدود الأوروبية.

وبازدياد التنقيب في الحفريات الأثرية مع مرور الأيام، تتوثق القناعة بأن انتشارَ الثقافة الآرية نَبَعَ من مركز واحد. وعلى النقيض من ذلك، يُلاحَظُ أن تاريخ التمدن والتمايز الطبقي يرجع إلى السومريين، إذ بدأ يهيمن في أعوام الألف الثاني قبل الميلاد. يلي ذلك عصر التاريخ المكتوب. إلا إن التاريخ الحقيقي والأعرق والأعمق، هو عصرُ الزراعة الذي استمرّ أكثر من عشرةِ آلاف سنة، وكانت أورفا مركزَه. ومِن قَبلِه كان عصرُ جمعِ الثمار، الذي استمرّ مئات الآلاف من السنين. أما التاريخ المكتوب، فهو حديث وذو مضمون طبقي على الأغلب. وهو تاريخ يزَوِّر الحقائق بنسبةٍ عليا،

ويُقدّس الصعود السياسي والأيديولوجي للحكام. إنه نوعٌ من التاريخ اللعين، الذي يُشوِّهُ التاريخَ الحقيقيّ والقداسة الحقيقية.

بَرَزَ الآشوريون ذوو الأصول العمورية في شمال بابل في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد. واشتُهروا كقومٍ خبيرٍ مُلِمٍّ بشؤون التجارةِ بين ميزوبوتاميا العليا وبلاد الأناضول. وحَظَوا بنفوذ عظيم من التجارةِ بين ميزوبوتاميا السفلى التي كانت تزدهر بمُدُنها، وبين ميزوبوتاميا وبلاد الأناضول الشهيرة بالزراعة والتعدين. بذلك أصبح الآشوريون قوةً مهيمنةً تجارياً وسياسياً، بدءاً من أعوام ١٣٠٠ ق.م وحتى أواخر أعوام ٦٠٠ ق.م.

وتكتسبُ أورفا أيضاً أهمية متزايدة، كَونَها في مركزِ هذه الأنشطة التجارية والزراعية. كما إنها تلعب دور العاصمة من حين لآخر، سواء في عهد الهوريين ذوي الأصول الثقافية الآرية، والذين اشتهروا بامتهان الزراعة والتعدين، أو في عهد أحفادهم الميتانيين. إذ يتداول الآشوريون والهوريون الحكم على أورفا، التي تغدو إحدى أهم مراكزِ الميتانيين، لتحافظ على أهميتها في عهد الأورارتيين أيضاً. وتَشهدُ في تلك المراحل صراعات كثيفة بين الهوريين والآشوريين والحثيين، الذين كانوا يتداولون الحكم عليها. في حين أنها تخضع للهيمنة البرسية بعد عهد الميديين. وتتعرف على الهيلينيين في عهد الإسكندر، لتخضع إلى الهيمنة الرومانية بدءاً من القرن الأول قبل الميلاد. كما تغدو في تلك الفترةِ مركزاً للدولة الأبجرية ذات الأصول الآرية والآشورية. وعندما يحلّ البيزنطة محل الرومان، تصبح أورفا

ساحةً لصراعهم مع الساسانيين، ليتداولوا الحكم عليها. كما وتأتي أورفا في مقدمة المناطق التي شهدَت اعتناق المسيحية بين صفوف الآشوريين والأرمن والكُرد.

كنا أكدنا سابقاً على أن أورفا كانت مركزاً للحركات النبوية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. نخصُّ بالذّكر التقاليدَ النبوية التي تُمَثِّل مقاومة القبائل المحلية ضد المُلوكِ ذوي الأصول الآشورية (والذين عُرِفوا بلقبِ "نمرود")، والتي ابتدأَت عهداً تاريخياً مع سيدنا إبراهيم. إن تلك التقاليد تُمَثِّل مضموناً تقاليدَ مقاومةِ الشعوب والقبائل المتطلعة إلى الحفاظ على حريتها في مواجهةِ النظام العبودي. أما التحول الأيديولوجي المتجسد في الانتقال من الطوطمية القَبَلية نحو عبادةِ الإله الواحد، فيتأثر بالميثولوجيا السومرية أيضاً، ويتحول تدريجياً إلى الأديان التوحيدية.

يُعَدُّ الأنبياءُ صانعي وممثلي هذا التطور التدريجي التاريخي أساساً. إذ يتَّسمون بجوانب نسبية من الحرية، ويُعَبِّرون عن ردود الفعل تجاه التمايز الطبقي. كما يؤثرون بنحوٍ رئيسيٍّ في رسم الملامح الأيديولوجية للفترة الانتقالية من عهد الإدارات القَبَلية المشتتة نحو ظهور جهاز الدولة. علاوةً على أن تلك التقاليد أثرت بوضوح في ظهور قوى جديدة إلى الساحة. إذ يُعَدُّ تأسيسُ المَلَكيةِ العبريةِ الأولى حوالي الألف الأول قبل الميلاد من أهم نتائجها.

أما التوراة، الذي يُعَدُّ أول كتابٍ مقدسٍ لتلك التقاليد، فيتم تطويرُه لاحقاً ليصبح اسمُه "العهد القديم"، والذي يهدف أساساً إلى ضبطِ الحركات القَبَلية المشتتة والعشوائية في صراعِها مع السومريين والمصريين. وهو كتابٌ متأثرٌ بعُمق بالميثولوجيا المصرية والسومرية على السواء. أي أنه يَعمل على تكييف هاتَين الثقافتَين مع البنية القَبَلية.

تشهد هذه التقاليدُ تطوراً تدريجياً في عهدِ سيدنا موسى، لتَغدوَ ديناً قومياً لإسرائيل. لكنّ اليهودَ الذين يتعرضون للانقسام الطبقي في عهدِ سيدنا عيسى، يصبحون تيارَين منقسمَين عقائدياً بين التوراة والإنجيل، أي بين العهد القديم والعهد الجديد. فبينما كان "العهدُ القديم" يمثّل الكتاب المقدس للقوم اليهودي، يغدو "العهد الجديد" -أي "الإنجيل"- كتاباً مقدساً لكل الإنسانية المضطهَدة، ويَكسبُ الرّهان. وتتحول أورفا في هذه الفترة إلى أحد مراكز الديانة المسيحية.

ندرك من ذلك أن تلك الحركة الأيديولوجية التي بدأت في منطقة أورفا كانت أعمق مما نعتقد. وموقع أورفا يلعب دوراً مهماً في ذلك. فبُعدُ هذه المنطقة بمسافةٍ متساويةٍ عن بلاد الآشوريين والحثيين ومصر، يؤدي دور التوازن فيما بينهم، ويفسح المجال للتمتع بحريةٍ نسبية. بالمقابل، فإن ممثلي مراكز تلك الإمبراطوريات ليسوا أقوياء كثيراً إزاء سكان المنطقة. بهذا المعنى، فإن أورفا تلعب دورَ مركزٍ أيديولوجيٍّ مهمٍّ بعد أعوام الألف الثاني قبل الميلاد.

وتُشَكِّلُ القاعدةُ الشعبيةُ أرضيةً مناسبةً جداً لذلك. فالقبائل ذات الأصول الآرية والعمورية تعيش بنحوٍ متداخل مختلط. بل وما تزال هذه البنية الديموغرافية مستمرةً حتى في يومنا. إذ تم تشخيصُ استمرار حراكٍ سكاني يدل على وجودِ العرب في جنوب المنطقة والكُرد في شمالِها منذ خمسةِ آلاف سنة. ثم ينضمّ الأرمن والأتراك إلى هذه التركيبة السكانية فيما بعد.

وتغدو أورفا مركزاً بالغ الأهمية جغرافياً وديموغرافياً واقتصادياً وتجارياً. إذ تتوسط المراكزَ العبوديةَ الثلاثة العظمى في الأناضول ومصر وسومر، وتصبح أرضيةً وطيدةً للحراك الأيديولوجي والسياسي الجديد في وجه تلك المراكز اعتماداً على بُنيتِها الاقتصادية والتجارية والسكانية القويمة. وتَبسطُ خصوصيتَها هذه تحت اسمِ "أورفا المقدسة وموطن الأنبياء". وتتحول ردودُ أفعال كل شعوب المنطقة على العبودية إلى أصداء مُدَوّية مع تلك الانطلاقة الأيديولوجية، ما يفضي إلى انتشارها السريع بين الجماهير، لتصبح حركةً سياسيةً نافذة. وتلعب أورفا بذلك دوراً مهماً في ولادةِ الدول من الدرجة الثانية، وتغدو بنفسِها مركزاً لبعض الدول، لتحافظ على مكانتها هذه حتى الربع الأول من القرن العشرين.

بعد الديانة المسيحية، تتعرف أورفا على الدين الإسلامي لأول مرة عام ٦٤٠ م. وغالباً ما تساهم الديانة الإسلامية في تنامي ثقافة المدينة بفضل التجّار وأصحاب المهن الحرة، والذين تميّزوا بالنفوذ

مع تعاظمِ التجارة في العصر الإقطاعي. فالطرق التجارية مؤثرة ونشطة جداً بين شمال المنطقة وجنوبها وبين شرقها وغربها. وبإضافة نفوذ الزراعة وتربية الحيوان منذ آلاف السنين، فإنّ هذا يُمَكّن المنطقة من الحفاظ على منزلتها المركزية بنحو وطيد، لتزداد أهميةُ دورِها المركزي مع الديانة الإسلامية. وبينما تبقى تحت الهيمنة العربية حتى أعوام ١٠٠٠م، فإنها تدخل تحت سيطرة الكُرد المروانيين خلال أعوام ٩٩٠-١٠٨٠م.

ثم يتداول الحكمَ عليها كلٌّ من الأرتقيين[١] ذوي الأصول التركية، ثم السلالة الأيوبية الكردية في أعوام ١٢٠٠م، ثم العثمانيين منذ أعوام ١٥٠٠م. وبينما يبقى الكُردُ شعباً في الصدارة طيلة تلك المراحل، فإن السُّريان المُتَبَقّين من الآشوريين القدماء، والأرمن والعرب والأتراك، يتحولون إلى مستوطنين في المنطقة. وتتحول أورفا إلى مركزٍ لكل الثقافات الدينية والبنى الإثنية، لتحظى بذلك ببُنيةٍ كوزموبوليتية. مع ذلك، نجد أنها لا تشهد سيادةَ ثقافة واحدة، بل تبقى التعددية الثقافية تَسودها بسبب جذورها التاريخية العريقة. وتَسري القدسية عموماً في كل تلك المراحل. ويَعود ذلك -مثلما نَوَّهنا سابقاً- إلى دورِها المركزيّ في الثورة الزراعية وفي أيديولوجية النبوّة.

[١] **الآرتقيون:** أو الأراتقة أو بني أرتق، نسبةً إلى أرتق بن أكسب. وهي سلالة تركمانية حكمت ديار بكر وماردين ما بين أعوام ١٠٩٨م و١٢٣٢م (المترجِمة).

هذا التاريخ الموجز لوحده يكفي للإشارة إلى أن أورفا وجوارها تتسم ببُنيةٍ تاريخية معقَّدة. إذ تَسودُها مضموناً الثقافةُ المعتمدةُ على التجارة والاقتصاد، والتي تتداخل فيها الثقافات الإثنية والدينية. فبينما يهيمن على مناطقها الريفية الواسعة نظامُ العشائر والقبائل البدويةِ المعتمدةِ على الزراعة عموماً وعلى التجارة نسبياً، فإن ما يَسود مركز المدينة هو الثقافات الدينية والبنى الإثنية المتعددة المنشغلة بالتجارة. وما يزال هذا الوضع الشبيه بخصائص المدن السومريةِ قائماً حتى يومنا. إنها منطقةٌ تَعرَّفَت على الكثير من النماردة بصفتهم حُكّام العصر العبودي، وعلى الأمراء والأغوات والأسياد كحُكّامٍ مهيمنين في العصر الإقطاعي. وعليه، فمن الضرورةِ النظرُ إلى حادثة الرمي في النار بالمنجنيق (المتبقية من عهد نمرود) على أنها ترميزٌ ودلالة على حدّةِ الصراع ذي الأسس الأيديولوجية والاقتصادية. وعليه، فما مِن داعٍ إلى المصطلحات الجديدة لشرح أورفا التي وصلَت القرنَ العشرين بهذا النحو بكلِّ مقدساتها ولعناتها. لكنّ تَحَوُّلها الأبرز هو ذاك الذي تَطوَّر بين القداسة واللعنة.

نفهم من ذلك أن القداسة تحديداً قد تعرَّضت للخيانة الكبرى في ثقافة أورفا، التي ما تزال متشبثة بمقدساتها. فالطغيان العبودي والإقطاعي ونظام النفاق والرياء قد أفرغا القدسية من مضمونها. إذ تعرضت هذه القداسة النبيلة والمشحونة بالمعاني الفاضلة العظيمة، تعرضَت للاحتلال على يد الملاعين الذين طَوَّروا طبائع الهيمنة والاستغلال على الدوام. وهذا ما خَلَق وضعاً مقلوباً. فبينما

وُصِمَ المضمونُ الحقيقي للقداسة على أنه لعين، فقد التَحفَ الملاعين الحقيقيون بصفات القداسة! إذ آلَ أصحابُ الكدحِ إلى الوضعِ اللعين، بينما لَفَّ خلفاءُ النماردةِ أنفسَهم بكسوة القداسة وتشبثوا بها! كما عَقَدَ سكانُ المدينة وأزلامهم الريفيون تحالفاً خيانياً منذ آلاف السنين ضد القيم المقدسة الحقّة وضد أصحاب القداسة الحقيقيين. ينبغي تحليل هذا التحالف جيداً. إذ بدون تحليله كفايةً، لا يُمكن لأورفا وجوارها أن تلتحمَ بماضيها الباهر وإنسانيتها، ولا بجميع مقدساتها وأنبيائها وأتباعِهم الذين لا عدَّ لهم ولا حصر.

ما هي ماهيةُ الخيانة التي يرتكبها أعداء القداسة تحت غطاء القداسة ضد الشعوب وأصحاب الكدح؟ كيف لهذه اللعبةِ أن تستمرَّ منذ أيام السومريين وحتى راهننا؟ لقد حاولنا سرد النقاط الأساسية في هذا الشأن. فهؤلاء هم الشريحة الخائنة التي آلت إلى التهميش تدريجياً. لقد خانوا المجموعات الشعبية ذات الأصول الإثنية (الكادحين) من جهة، وخانوا الثقافة العامرة بالقداسة من جهة أخرى. وتتأتى قوتهم من تواطؤهم مع مراكز العبودية، ومن أساليب القمع والتعذيب، ومن التهديد والوعيد بالرمي في النار بالمنجنيق. كما تتأتى من إفراغ القداسة من مضمونها الأيديولوجي، ومن ثَمّ حقن الأذهان بقشورها. لذا، لا علاقة لهؤلاء بتاتاً مع ثقافة الإلهة الأم، ولا مع الدين الإبراهيمي. فهؤلاء لا يَعترفون بالدين بتاتاً، ولكنهم يجعلونه فزّاعة بيدهم، حصيلة هرعهم وراء آلهةٍ مزيفة

أخطر حتى من الكهنة السومريين. إنهم أكثرُ مَن يتحدث عن الدين والإله، ولكنهم غالباً ما يَرمون منه إلى التستر على خيانتهم التاريخية.

أما علاقة أورفا بالدين، فينبغي تحليلُها والتدقيق فيها كموضوع قائمٍ بذاته. بإمكاني القول هنا أن الحقائق المقدسة في أورفا تعرَّضَت للخيانة لدرجةٍ تُحَتِّمُ علينا أولاً أن نُطَهِّرَ هذه المدينةَ الدينية من رجالات الدين المزيفين. أي أنه علينا أن نقول "كفى" لهذا الكمِّ من الخيانةِ بحقِّ الدين، وأن نتمكنَ من وَضعِ حدٍّ نهائيٍّ لنظام الكهنة السومريين ذاك. لا يَهمُّ هنا إن كان أولئك الخونة يتصرفون بوعيٍ أو من دونه. فالوضعُ متفاقم جداً، ويُشَكِّل الحلقة الأقوى هناك. ذلك أن سُكّان مركزِ المدينة وأزلامهم الريفيين، والأغوات والأمراء والأسياد وبقايا الشيوخ، كلهم يُنتِجون قِيَماً سامَّةً كما العقرب، ويَبثُّونها في موطنِ مهدِ البشرية هذا.

لذا، ينبغي القول "كفى" لهذا القدر من بَثِّ السموم. فهؤلاء لم يُقَدِّموا شيئاً لهذا الشعبِ النبيلِ في هذه المنطقة ولا لثقافتِها الفاضلة. بل ينكرون ما هو موجود على الدوام. وعلى الرغم من أنهم يأكلون ويشربون من خيراتها منذ آلاف السنين، إلا إنهم لا يستطيعون منحَها أيَّ شيء. بل وطالما أَهدَوا الخيراتِ اللذيذةَ في أورفا إلى مراكز العبودية. وهاهم الآن يرسلون تلك الخيرات بالطُّرود عبر الطائرات إلى كل أرجاء العالم، مع أن أورفا وجوارها تعاني الجوع الشديد والفقر المدقع والبطالة حتى النخاع. إن هذا الوضعَ يُعاش

في أعرقِ وأخصبِ أراضي العالم. ومن جهة أخرى، بات الشعب عاجزاً عن التعبير عن ذاته، وجاهلاً للُغَتِه وثقافته، على الرغم من أنه يسكن المكان الذي شهد تَطوُّرَ أكثر اللغات والثقافات. في حين أنّ الخونةَ هناك يتحدثون بطلاقةٍ كما البلبل، ويتبارزون على بطولةِ "ثقافةِ الفساد". إذ يُحَوِّلون كل الأصوات والموسيقا والمآسي والمرثيات المتعلقة بالآلهةِ والإلهات إلى سلعةٍ رخيصة يتاجرون بها.

لقد تَضَخَّمَت الخيانة أيما تَضَخُّم، واغتَنَت أيما غنى. بينما الشعبُ بات فقيراً وأخرس، ويتجه طردياً نحو الهاوية. لقد وصل هذا التناقضُ أقصى تعقيداته في منطقة أورفا. إذ وصلَ اغترابُ الشعب عن وجودِه الذاتيِّ أحلَكَ حالاته، وانقَلبَت معاني التاريخ والقدسية واللعنة إلى نقيضِ ما كانت عليه في البداية. وخرجَ التاريخُ من كونِه يمثِّلُ بدايةَ التطور، ليصلَ إلى نهاية المسار. ووُضِعَت القداسةُ مكانَ اللعنة، وتَقَمَّصَت اللعنةُ دورَ القداسة. يبدو أنّ هذا التناقض سيستمرُّ متزايداً في الاستفحال خلال القرن العشرين بنحوٍ يَسدُّ كافةَ مسامات الحياة، ليغدوَ بذلك قرناً لعيناً من بدايته وحتى نهايته.

مع انهيار الإمبراطورية العثمانية الإقطاعية، تَوجَّهَ الأتراك إلى تأسيس الجمهورية التركية، انطلاقاً من حرب التحرير الوطنية التي خاضوها بزعامة مصطفى كمال أتاتورك. وقد دَعمَ أكرادُ أورفا هذا التوجُّه. إذ شاركوا تماماً كعنصرٍ استراتيجيٍّ في حرب التحرير الوطنية

وفي تأسيس الجمهورية. وتمت مكافأة أورفا على دورها ذاك بمنحها شرف البطولة. لكن، وبتأثيرِ التمردات الحاصلة، لم تنعكس إيجابيات الجمهورية على أورفا. بل أفادت منها شريحةُ العملاء من وَرَثَةِ السومريين، فأخذوا أماكنهم فيها.

إن هؤلاء الخَدَم الأوفياء للنظام العبودي، والذين لا علاقة لهم البتة بأيةِ قيمةٍ جمهورية، قد سيَّروا أمورهم بأفضل صورةٍ كشريحةٍ محليةٍ خائنةٍ مهيمنة؛ معتمدين في ذلك على خبراتهم التاريخية، دون أي التزامٍ أو احترامٍ للقيم الوطنية الديمقراطية البارزة في القرن العشرين. كما لا علاقة لهؤلاء بسياق التنوير الذي شهدته الجمهورية. إذ تَقَمَّصوا قناعَ القداسة، ونَصَبوا شِباكَ مصالحهم في المدن والأرياف، متَّسمين بشخصياتهم الرعناء المنحطة والناكرةِ للوجودِ برجعيةٍ أفظع من الإقطاعيين. لذا، لم تتمكن البنية الإثنية والاجتماعيةُ للشعب من تكريس الانفتاحِ نحو الأمام، بل وضاقَ عليها لباسُها القديم. فباتَ الشعبُ يعاني الفقر المدقع في وطن الخير والبركة، وسقطَ في فراغٍ عميقٍ وهو وسَطَ أغنى الثقافات. وكأنه كان قَدَراً مكتوباً أنْ يتمَّ التوجه ثانيةً في الربعِ الأخير من القرن العشرين نحو تقاليدَ أقربُ إلى أنْ تَكُونَ نَبَويّةً مستحدَثة.

لقد بَلَغنا مرحلةَ ظهور "حزب العمال الكردستاني PKK" في أورفا. يتبدى ظاهرياً أن PKK تأسس في العاصمة التركية أنقرة. لكن، لَطالما كان الجَدَلُ حينها يدور حول الوطنيةِ المعاصرة والاشتراكيةِ تَيَمُّناً بالحركاتِ الشبيهة في العالم. ثم بدأت العملياتُ العسكرية

فأُريقَت الدماء في نهاية المطاف. وبدأتُ بصياغةِ تقييماتٍ شاملة حول PKK، إذ كانت آخرُها تلك التي حاولتُ طرحها في جلسات (مرافعات) محكمة إمرالي. لذا، لا داعي لتكرارها. لكنّ الجانب الذي لفَتَ اهتمامي هو أنني لم أتمالكْ نفسي من طرحِ الأسئلة التالية مِراراً في قرارةِ نفسي: "ما علاقة PKK بالواقع التاريخي والمرحلي الملموس لأورفا؟". وأنْ أَكونَ من أبناءِ قرية "عُمَرلي" القريبة من نهر الفرات، والتي تقع في أقاصي شمالِ أورفا، فما هي التداعياتُ المحتمَلة لذلك على PKK الذي أسستُه؟ هل الثقافة القروية هي السائدة فيه، أم ثقافة أورفا، أم أنها القِيَمُ الأكثرَ عالميةً؟ وهل نجحَ PKK في أن يصبح حركةً معاصرةً مثلما يُزعَم؟

عندما أَقفُ وأعيدُ النظر في المسار، أرى أن الشكلَ المستحدَث والمعاصِرَ للتقاليد النبوية يَغلبُ على الحقيقةِ الأساسية التي طبَعَت ممارستي بطابعها. أي أني، وبالتالي PKK، لَم نَهتَمّ كثيراً بالقرن العشرين. بمعنى آخر، فكأن علاقتَنا بهذا القرن بقيت شكلية وعلى مستوى الكلام. لِنَقُلْ أنني شخصياً لَم أبلغْ ولم أفهمْ أو أتمثلْ روحَ وشخصيةَ القرن العشرين (هذا إنْ كان ثمة روح أو شخصية فيه). بالتالي، كنا بعيدين جداً عن إيلاء المعاني اللازمة للجمهورية التركية أو أوروبا أو الاتحاد السوفييتي. كنا نَبدو متمدنين وبملابس حضارية نوعاً ما. ولكن، كان واضحاً مدى بُعدِنا عن روحِ ووعيِ تلك المدنية وجهلنا بهما. والأكثر غرابةً أني كنتُ بعيداً أيضاً عن فهمِ وتَمَثُّلِ

العالَم الإقطاعي الذي كنا قد خَلَّفناه وراءنا، فلَم تتجسدْ أيةُ خاصيةٍ من خصائصِ الثقافة الإقطاعية في شخصيتي.

فمِن جهة، لم تَكُنْ تتطورُ أيةُ علاقةٍ لي -من ناحية المضمون- مع العالم الحديث السائد. ومن جهةٍ أخرى، لَم أَكُنْ قد فهمتُ شيئاً من العصر الإقطاعي المنصرم، فصِرتُ طفلاً وحيداً. الغريبُ في الأمرِ هو أن الوضعَ كان ذاتَه في أوساطِ العائلة والقرية والمدرسة. فغالباً ما كنتُ أكررُ عن ظَهرِ قلبٍ اسمَي الأم والأب والمصطلحاتِ التي تعلمتُها، كالأخ والمرأة والرجل والمعلّم والأقارب. فكأني بي أقولُ في قرارة نفسي: "على الأرجح أنني لن أفهمَ شيئاً من هذا العالم، أو أني لن أَقدِرَ على فهمِ ما يحاولون تلقيني إياه". لكنني ظاهرياً كنتُ أحاولُ محاكاةَ الآخرين. وكنتُ أَحترمُ كلَّ ما هو فاضل. لكنّ الافتقارَ إلى الجوهرِ كان غالباً أساساً على الرغم من كل ذلك. كنا قد أسسنا PKK وبذلنا الجهودَ اللازمة ليقومَ بأعماله ويتطور على غِرار الأحزاب الأخرى. بل وكان PKK يتحولُ إلى أكثر التنظيماتِ الجاذبةِ للأنظار في العالم. فكأننا كنا نفعل كلّ ذلك تكريماً للقرن العشرين. لكن، وعندما جَدَّت الأمور ووصلت الحدودَ التي لا رحمةَ فيها؛ كان يتجلى تماماً أن هذا الواقع سيُصاب بالتصدع.

فلدى وصولنا نهايات القرن العشرين، كان كل واحدٍ يُعَوِّلُ على تأسيس PKK خاصٍّ به. كانت الدلالاتُ الملموسةُ لذلك تفرضُ حضورَها بكل ثِقَلها. فوجدتُ نفسي وحيداً. أو بالأصح، كنتُ أشعرُ في الصميم -مرةً ثانيةً- بالوحدةِ التي لازَمَتني في بدايات الأمر وفي كل

الأوقات. فتَمَيَّزتُ بكَوني وحيداً، وكأنني أحيا خارج العصور، ولكني أنتمي إليها جميعاً في آنٍ معاً. وقد أَوضحتُ أني فهمتُ هذا الأمر. إذ كنتُ أَعلَمُ أنّ كلّ الذين ساروا على درب السموّ يقتربون من هذه الخاصية. بمعنى آخر، فكلما تَجرَّدتم من العصر والزمان اللذَين تنتَمون إليهما، كلما تَمَكَّنتم من الولوج في كل الأزمنةِ والعصور. وقد عايشتُ ذلك في واقع PKK الملموس. وعليه، فمن المؤكدِ حتماً أن هذا الواقعَ يُشكِّلُ مدرسةً مذهلة.

كنتُ على يقينٍ بأني أرفضُ كلياً الميولَ الانفصالية والعنف، وأنه لم تختلجني هكذا رغبةٌ أو نزعة. بل تجسدَت كل مطالبي وطموحاتي في النقاش حول كل شيء بحرية، وفي تطبيقِ النتائج المُجمَع عليها. هذا ما كنتُ أحبذه. وهذا ما كنتُ أراعيه في تحديدِ أهدافي العملية. وقد قصدتُ ذلك بالتحديد حينما قلتُ أنني "أبحث عن مخاطَب". كنتُ لا أضعُ أيَّ احتمالٍ لقبولِ الحوار (من طرفِ الأتراك)، نظراً لانغلاقِ الواقع التركي على نفسه. لذا، لم أَثِق أبداً بالمقاربات الشبيهةِ بالحوار، والتي ظهرَت في عهدِ أوزال أو في المراحل اللاحقة. هذا هو الجانب المهمُّ من رؤيتي للممارسةِ العملية إلى حين أدركتُ الحقيقة. أما المزاعم الأخرى، فهي شكليةٌ ولا تَدرُّ نفعاً.

إني أبذل جهوداً حثيثةً لأجل تفسيرِ سياقِ إمرالي. بالإمكان القول أن هذه المرحلة تُشكِّل الفترة التي تعمقتُ فيها بالأكثر على الرؤية والمنظور، فترابطَت فيها أفكاري واتَّضَحَت. لذا، أرى أن نماءَ قدرتي

هناك على فهمِّ كلِّ شيءٍ كما هو، يُعَدُّ أمراً مهمّاً؛ بدءاً من الكون الأكبر وحتى أصغر حشرة. بل وأُدركُ تماماً أني تعمقتُ خلالها في الرؤية الخاصةِ بالحرب الكبرى، ووصلتُ إلى المستوى الذي يُخَوِّلني لفهمِ النظامِ الكامن في جوهرِ كلِّ الأشياء من الوهلةِ الأولى. وأردتُ عكسَ ذلك على PKK أيضاً. فاقترحتُ وأَكَّدتُ على أنه: إنْ كان ثمة إمكانية -ولو بحجمِ رأسِ إبرة- لأجلِ تحقيقِ الوحدةِ المتناغمةِ مع جوهر القوانين، ليس بخصوص السيادةِ الوطنيةِ والسياسيةِ لتركيا فحسب، بل ومع كل الشعوب والبلاد المجاورة؛ فإنّ هذا سيَكونُ أَثمن من الانتصارِ في أعظمِ حرب، وأنّ تفضيل ذلك سيَكونُ رائعاً. ويكفي لتحقيقِ ذلك أن تُبديَ جميعُ الأطرافِ القدرةَ على الالتزام بالمصطلحات القانونية العالمية. وبعد تمكينِ ذلك، فسَيَكون هدفي وطموحي هو تكريس الوحدةِ مع كافة الشعوب والبلدان. وقد اتَّبَعتُ هذا الموقف دون أي تردد.

إني أَثِقُ دوماً بالدفاع المشروع، وبِتُّ مقتنعاً بأنه يُشكِّل أحد قوانين الطبيعة. فعلى الرغمِ من العدوانيةِ السائدة في الطبيعة، إلا إن الأساس هو قوانين التكوين الطبيعي للكائنات، أي "الدفاع المشروع". بالتالي، لا يُساورني الشكُّ بتاتاً في إمكانيةِ أنْ يتحدى شخصٌ واحدٌ العالمَ أجمع بالدفاع المشروع الموفَّق. فما يسري هنا هو الالتزامُ بالقوانين الكامنةِ في جوهرِ التطور، وليس الوزنَ الفيزيائي للقوى المضادة. وعليه، فإن حالةَ الدفاع المشروع التي يتمسكُ بها PKK حالياً هي ضرورةٌ حتمية. إذ أُؤمِنُ بضرورة ذلك من أجل

الجميع: من أجل كافة شعوب الجوار، ومن أجل المنطقة عموماً؛ إلى أن تُمَهَّدَ الطريقُ أمام تمكينِ الوحدةِ الحرةِ ونظام القانون العالمي. وما بَعدَ ذلك سيَكونُ مرهوناً بموقفِ كل دولةٍ معنية.

فإذا تسبَّبَت الاعتداءاتُ بتضييق الخناقِ على الدفاع المشروع، فسيُمهد ذلك إلى تصعيدِ أجواء العنف. ذلك أنّ الهجومَ على الدفاع المشروع لن يجلبَ أيةَ منفعةٍ للدولة المعتدية، بل وسيُعَزِّز بالمقابل شأنَ المتمسكين بالدفاع المشروع. بالتالي، فالموقفُ الأسلم هو تَركُ الأبواب مفتوحةً على التحول الديمقراطي التام، والالتزام بالمواقف التي تَميل إلى حل كافة القضايا والمشاكل بالوفاق الديمقراطي. مقابل ذلك، فمن الواضحِ أنّ وضعيةَ الدفاع المشروع المستدام ستخلق معها التوترات، وستُسفِر عن أوضاعٍ لا يُحمَدُ عُقباها تجاه الأحداث غير المتوقَّعة.

لقد انتقدتُ بشدةٍ الرؤيةَ العمليةَ والممارساتِ السابقةَ في PKK، وحاولتُ جذبَه إلى نهج الدفاع المشروع. لكن، عليَّ التنويه أني لَم أُوَفَّق في ذلك كما أريد. إذ تتجسدُ النتيجةُ التي توصلتُ إليها بشأنِ العنف في أنه يجب عدم شنِّ أي هجوم، وعدم سفكِ ولو قطرة دمٍ واحدة، في حالِ لم يَستهدف الاعتداءُ المضادُّ حقَّ الحياةِ أو حريةَ التعبيرِ عن الوجود. إنّ هذا من دواعي فلسفتي في الحياة الحرة، والتي طالما سعيتُ إلى الالتزام بها.

فالأشخاص الذين لم يفقدوا وعيَهم، والذين يعرفون كيف يستنبطون الدروس، إنما يُحققون أهم التحولات في أحلك الظروف. إني واثقٌ من أنني أنجزتُ ذلك من خلال مواجهتي لأقسى الظروف والأحداث لسنين طويلة. وقد بَيَّنتُ النتائجَ التي توصلتُ إليها بصورةٍ شاملة في هذه المرافعة. إذ طرحتُ تحليلاتي بشأن العديد من المواضيع والمصطلحات، بدءاً من العالم والشرق الأوسط، وصولاً إلى الوطن والمجتمع والدولة. بالتالي، وعلى هدى كلِّ ذلك، وبالنظرِ ثانيةً في الواقعِ الملموسِ لأورفا وجوارها؛ فإني أَعتَبِرُ صياغةَ رؤيةٍ جديدة بصدد القرن الحادي والعشرين مسؤوليةً تقع على عاتقي.

إنّ أورفا هي وجهاً لوجهٍ أمام ضرورةِ أن تلعبَ دورها التاريخيّ ثانيةً. لذا، عليها أنْ تضعَ بدايةً جديدةً للتاريخ مرةً أخرى، وأن تضعَ القداسة واللعنة في مكانَيهما المناسبَين. فهي المنطقةُ التي ما تزال الأعراف والتقاليد الإقطاعيةُ تتحكمُ بواقعها الملموس بقوة. بل وإنّ بقايا النظام السومري ليست بالقليلة في بُنيتها الذهنية. أما في أريافها، فالذهنيةُ النيوليتية هي السائدة بنسبة كبيرة. إذ لم تَفعل أحكامُ القِيَم الرأسماليةِ فِعلَها في جوهرها، فبقي تأثيرُها تقنياً فقط. فكأنّها، أي أورفا، مع المناطقِ المجاورة لها تُمَثِّلُ وطناً داخل وطن. وما تزال التعددية الإثنية والثقافية موجودةً في بُنيتها، لتَكُونَ بذلك نموذجاً مُصَغَّراً عن الموزاييك المجتمعي للشرق الأوسط. بمعنى آخر، فما يُمثِّله الشرقُ الأوسط من مكانةٍ وأهميةٍ بالنسبةِ إلى العالم،

تمثله أورفا أيضاً بالنسبةِ إلى الشرق الأوسط. هذا هو مقصدُنا من الدورِ المشابه الذي أدته أورفا في التاريخ. وقد زادت أهميتُها ودورها أكثر مع البدء بتنفيذ "مشروع جنوب شرق الأناضول"[٢].

لا شكّ أنّ لأورفا مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المهمة. ولكن، بإمكانِ الاستثماراتِ المحدودةِ أيضاً أنْ تنمَّ عن تطوراتٍ كبيرة. إلا إنّ صُلبَ القضيةِ لا ينبعُ من كل ذلك. فالقضيةُ الأساسية تتعلقُ بالمجال الأيديولوجي. إذ تتسمُ بُنيتها الذهنيةُ بأعمق خصائص التَّزَمُّت المؤثرةِ في عمومِ الوطن. فهي لا تتميزُ بالعصبيةِ الإقطاعيةِ فحسب. بل وتُمَثِّلُ العصبيةَ التي وَرِثَتها من القوى المهيمنة عليها طيلة الحِقبِ والقرون، وتقوم بنشرها في جميع الجهات. لذا، فهي منغلقة بمفاهيمها الأيديولوجية والسياسية على الجمهورية العلمانية والديمقراطية. وبدون تجاوُزِ هذه الذهنيةِ والرؤية السياسية، فستستشري فيها عصبيةٌ أكثرَ تحجراً بموجبِ "مشروع جنوب شرق الأناضول". والنتائجُ التي ستتولَّدُ من ذلك لن تَكُونَ أقلّ أهميةً من النتائجِ البارزةِ في نموذجِ PKK.

[٢] **مشروع جنوب شرق الأناضول:** ويُعرَف اختصاراً باسم "GAP". ويهدف المشروع إلى بناء ٢١ سد ونفق على مجرَيَي نهرَي دجلة والفرات، ويضم ١٧ محطة توليد طاقة كهربائية من الماء (المترجِمة).

لذا، ينبغي أولاً خوض الصراع في سبيل الهوية الأيديولوجية، وأنْ يَكُونَ إنجازُ الثورة الذهنية على رأس المهام. تتضحُ أهميةُ ذلك في جرائم الشرف (الأخذ بالثأر). فإذا كان فرمانُ الموتِ يصدرُ من العائلةِ ويُطَبَّقُ بحقِّ الفتاةِ بسببِ تَصَرُّفٍ من المُفتَرَضِ أنه من أبسطِ حقوقها الطبيعية، فإنّ هذا دليلٌ على مدى خطورةِ الوضع. فهذه الذهنيةُ تجعلُ أصحابَها أكثر خطراً من آلاف الأشقياء المتحصِّنين في الجبال، ليس على صعيدِ الحرمان من حقِّ الحياةِ والحريةِ فحسب، بل وحصيلةَ الأجواءِ المتزمتةِ القاتمةِ التي تنشرها في عمومِ المجتمع. إذ إنها تتسببُ في سدِّ الطريقَ أمام المنطقةِ من أنْ تُفَجِّرَ طاقاتِها الكامنة. ما من ريبٍ في أنّ التَّزَمُّتَ ينتهلُ قوته من حقيقةِ الطبقةِ الاستغلاليةِ التي حَكَمَت المنطقةَ لآلافِ السنين. أما العلاقاتُ الرأسماليةُ التي ستتنامى حديثاً، فسيَجري استثمارها في تجذيرِ هذا الوضعِ وتعزيزه، بدلاً من التأثير في حَلحَلَته وتفكيكه. والخبرةُ التاريخيةُ في هذا السياقِ تَمدُّها بالقوةِ العظمى لأجل ذلك.

بناءً عليه، ينبغي أن يَكونَ التدخلُ الأيديولوجيّ في المنطقةِ وفق المعايير الديمقراطية، إذ تخضعُ المنطقةُ إلى ما هو أَشبَهُ بالنهضة. فما مِن شيءٍ أثمن من التحول الديمقراطي بالنسبة إلى أورفا. بمعنى آخر، ثمة حاجةٌ ماسة إلى "مشروع التحول الديمقراطي" الفاعل والمؤثر بقدرِ "مشروع جنوب شرق الأناضول". ينبغي العِلمُ مُسبَقاً أن تطبيقَ ذلك غير ممكن من خلال حركةٍ شعبيةٍ تنبثق من أحشاءِ المجتمع القديم، ولا من خلال تدخلات الدولة. لا ريب أن الدولة

والمجتمعَ لن يَبقَيا مكتوفي الأيدي، بل سيؤديان دورهما المنوط بهما.

لكن الأهمَّ أولاً هو تطويرُ مشروعِ المجتمع المدني الشامل. إذ يمكن لمنظماتِ المجتمع المدني التي ستتنامى بحرية، والتي ستَكُون على مسافةٍ من الدولةِ والمجتمع فلا تتصادم مع الدولة، بل تتعاون معها إذا توفرت الإمكانيات؛ يُمكنُها أن تنجحَ في إنجاز الثورةِ الديمقراطية. كما ستتمكن منظمات المجتمع المدني، التي ستتأسس في كل المجالات وحسب الحاجة، من تحطيم الذهنيةِ المتزمتة. ولدى النجاح في إنجاز ذلك، فستبلغُ حركةُ التنوير أقصاها في العقول الأكثر تعطشاً للحرية.

في الحقيقة، إذا تمَّ توحيدُ الخصائص القوية المتبقية من عهدِ النظام الأمومي في البنية الذهنية لشعبِ المنطقة، وكذلك المقدسات المتبقية من الثقافة النبوية، إذا اتّحدَت مع المعايير المعاصرة للتحول الديمقراطي؛ فستتحققُ ثورةٌ تنويرية شاملة. وبما أنّ ذلك سيؤثر في الأخلاقِ أيضاً، فإنه سيمنح الفرصةَ لتحقيقِ نقلةٍ نحو التحلي بقوةِ السلوكيات والمواقف الحرة. وهذا ما يقتضي الاتسامَ بالوعي التاريخي الكافي والسديد، ويؤكد على الأهميةِ العظمى للتدريب والتوعيةِ بخصوص العلم والفلسفة الدياليكتيكية والفردانية.

لذا، يتوجب تأسيس العديد من الجمعيات بهدف التوعية، وإنجاز نقلةٍ في مجال الفن بين صفوف الشعب. إذ لا يمكن تحرير وتنوير الروح والذهن، ما لم يُحَطَّم التأثير المُخَدِّر للفنون الحالية، والذي يتسبب بالبلادة والرعونة. كما إن طرح النقاشات الواسعة بصدد تاريخ المنطقة وفنونها، وبصدد كل البنى التحتية والفوقية للمجتمع، سينمُّ عن نتائج مثمرة للغاية. في الحقيقة، ثمة حاجةٌ إلى حملةٍ ذهنيةٍ إبراهيميةٍ مستحدثة. فالأصنام الحالية أكثر تعداداً وتماسكاً ورسوخاً، لدرجةِ أنها أصابَت العقول والقلوب بالشلل. بالتالي، علينا التحلي بشخصية سيدنا إبراهيم، كي نحطم تلك الأصنام بالفأس المعنوية والأخلاقية والفكرية الكاسحة. فالاحترام الحقيقي للأديان والالتزام الصحيح بالقيم المقدسة يستلزم الردّ بحملةٍ كهذه. وثورةُ تحطيم الأصنام الجديدةِ هذه ستصبح نهضةً حقيقيةً لأورفا.

تُعَدُّ دمقرطةُ السياسةِ ثاني خطوةٍ مُهِمّة، سيما وأنه ثمة حاجة كبرى لحركةٍ حزبيةٍ ديمقراطية. إذ بمقدورِ تنظيمٍ مبدئيٍّ وطموحٍ يمتلك القوة الكادرية الكافية ويتحلى بالإيمان والوعي اللازمَين لإنجازِ التحولِ الديمقراطيّ، بمقدورِه أنْ يَكُونَ طليعةً للمجتمع المدني. كما بإمكان منظمات حقوق الإنسان ورابطات حرية المرأة وجمعيات الشبيبة التي سيتمُّ تأسيسها أن تفسح المجال أمام التحول الديمقراطي. هذا وينبغي أنْ يُكَلَّفَ المتّسمون بالوعي الديمقراطي والذين يُثَمِّنون العمل المؤسساتي بالعمل في تلك

المنظمات والمؤسسات. إذ لا يمكن تسيير هذه النشاطات بأشخاصٍ يفتقرون إلى الإيمان الراسخ أو لا يبذلون الجهود الحثيثة. فما مِن نشاط أثمن وأنبل من النشاطات الديمقراطية لأجل أورفا والمناطق المجاورة لها.

ثمة بعض المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية التي تتسم بالأهمية. فالمنشآت الصحية الشعبية الرخيصة، والتعاونيات الاستهلاكية، وبضعة مزارع إنتاجية نموذجية، وصالات التدريب الرياضي؛ كلها مؤسساتٌ قادرةٌ على لعبِ دورٍ إيجابيّ. أخصُّ بالذِّكر أنه ثمة حاجة لممثلين حقوقيين معنيين بحقوق الإنسان والقانون حتى في القرى والضواحي والأحياء. فنشاطُ التوعيةِ القانونيةِ ذو أهميةٍ مصيريةٍ تُماثِلُ أهميةَ التوعية التاريخية بأقل تقدير. إنّ هكذا مؤسسات وغيرها من منظمات المجتمع المدني المتأسسة في مجالاتٍ أخرى مشابهة، ستَضغط على الدولة والمجتمع على السواء، لتدفعَهما نحو الأمام. وفي حال نجاح ذلك، فإنّ حراك المجتمع المدنيّ في هذا الاتجاه سيُقدِّم أعظم مساهمة في تاريخ أورفا على صعيد تحقيق التنوير الحقيقي وتكريس الإدارة الديمقراطية.

وبإضافةِ البنية التحتية التقنية المتطورة إلى ذلك، فستتمكن هذه البنى الأيديولوجية ومنظمات المجتمع المدني من تصييرِ أورفا قوةً ريادية اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. وحينها ستنمُّ الأرضُ الخصيبة المعطاء عن الغنى والثراء، وستَخرجُ البطالة والفقر

والأمراض من كونِها قَدَراً محتوماً، وستؤدي أورفا دوراً يوازي وزنَ بلدٍ متوسطِ الحجم في أوروبا أو الشرق الأوسط. وأورفا الديمقراطية التي تزدهر فيها الثقافاتُ من مختلف المجموعات الإثنية المنتمية إلى الشرق الأوسط الديمقراطي، وتتواصل مع بعضها بعضاً بروحِ التسامح العميق، سوف تَكون أعظمَ إنجازٍ باسم البشرية. وستصبح أورفا بناءً على ذلك مركزَ جذبٍ حقيقيٍّ يُضفي المعنى الصحيح على مقدسات الأنبياء، وستغدو موطناً مبارَكاً كما الحج. وسنشهد حينها بدايةَ عهدِ أورفا الديمقراطية، التي تَمدُّ الشرق الأوسط الديمقراطي بالقوة أكثر من غيرها.

وانطلاقاً من الدروس التي استنبطتُها من موطنِ الآلام ومن الأحداث القاهرة التي مررنا بها أنا وPKK، هذه هي النتائج التي توصلتُ إليها بشأنِ دعوى أورفا ومحكمتها والحُكم الذي سيصدر عنها. وكلي إيمان بأن التاريخَ سيَحكمُ عليّ بالبراءة، وبأنّ النصر الديمقراطي سيَكونُ حليفَ وطني وشعبي.

١٠ تموز ٢٠٠١

إمرالي

عبدالله أوجالان

الفصل الثاني

ما معنى تحديث شريعة سيدنا إبراهيم؟

لطالما تُقدَّسُ منطقة أورفا باعتبارها المكان الذي شهد ولادة شرائع الأنبياء عموماً وشريعة سيدنا إبراهيم خصوصاً. والسبب الرئيسي وراء هذه الظاهرة هو أن هذه البقعة الجغرافية هي التي شهدت -لأول مرة- تداخُلَ المجتمع الزراعي والبدوي مع مجتمع المدينة بأكثر أشكالهما كثافةً وعطاءً.

تُعَدُّ أورفا مركزَ العصر النيوليتي. وإذا أضفنا إليها المناطق المجاورة، فسنجدُ أن مئات مراكز السكن النيوليتي، التي بُنِيَت على التلال الترابية المرتفعة، والتي ما تزال تنتظر التنقيب والبحث؛ تثبت صحة هذه الحقيقة. تُشكِّل سهولُ أورفا المنطقةَ الأكثر خصوبةً ضمن الجغرافيا التي تتوسطُ كلاً من نهرَي دجلة والفرات وسلسلة جبال طوروس. بل وتُعَدُّ هذه الخصوبةُ عالميةً في مستواها، وما تزال تحافظ على خاصيتها هذه. ارتباطاً بذلك، فإن الترحال بين الجبال والسهول نَمَّ عن بنيةٍ مجتمعيةٍ مختلفة ومتطورة جداً. إذ إن القرى المستقرة والترحال ظاهرتان متداخلتان منذ القِدَم، وتَعود إلى أعوام الألف العاشر قبل الميلاد على وجه التقريب.

لقد أُسِّسَ مركزُ مدينةِ أورفا كمستوطَنةٍ سومرية. وكلمة "أور" تعني في السومرية "المدينة المبنية على التلال". وفيما خلا ميزوبوتاميا السفلى، فإن أولى المستوطنات السومرية تشكلت في منطقة أورفا. إذ تُشكّلُ مدنُ حرّان وسامسات وكاركامش محيطَ تلك المنطقة، بينما تتواجدُ أورفا في مركزها. وقد ظلت منطقة أورفا حتى أعوام الألف الثاني قبل الميلاد تُشكّلُ ثاني أهم مركزٍ بَعد المدن السومرية. كما كانت ساحةً مهمةً للانتشار نحو الخارج. وكانت - كمستوطَنة- تابعةً بمناطقها إلى ممالك المدن السومرية. لكنّ اختلافَ بنيتها الإثنيةِ كان يجعل المقاومة ضد الهيمنةِ السومريةِ أمراً لا مفرّ منه. علماً أن المدنيةَ السومرية هي أول مدنيةٍ تؤسِّس المجتمع الطبقي، لتنتشر في محيطها على موجات متوالية. إلا إن بنية المجتمع الزراعي والبدوي، التي تتسم بالحرية والمساواة، كانت لن تخنعَ بسهولة لهذا التمايز الطبقي. وكان الطابع التقدميّ للتمدن سيفرض نفوذه على المدى الطويل دون بُد. بالتالي، فإن أولى التجارب السومرية الاستعماريةِ كانت ستُسفرُ عن مقاوماتٍ باسلةٍ ضد ذلك بدءاً من أعوام الألف الثاني قبل الميلاد.

كانت المجموعات الآرية (وكلمة "آر Ar" تعني "المحراث" في اللغة السومرية)، التي أَسَّسَت المجتمع الزراعي في المنطقة، متداخلةً ومتناقضةً مع المجموعات الساميّة البدوية في آنٍ معاً. وكانت العلاقات التجارية الكثيفة متطورةً بينهما. فبينما استقرّ الآريون على الأغلب في شمال المنطقة وشرقها وغربها، فإن

الساميّين كانوا رُحَّلاً في جنوبها. وقد بُنِيَت مدينةُ أورفا في المكان الذي يتوسطهم جميعاً، وما تزال كذلك راهناً.

والحال هذه، فقد تميزَت أورفا -مدينةً ومنطقةً- بموقعٍ مثاليّ في أعوام ٢٠٠٠ ق.م، وذلك على صعيد الزراعة والتجارة والمهن الحرة وتربية الحيوان. إذ غدت ثاني أكبر متروبولٍ بعد ميزوبوتاميا السفلى. فقد كانت كنايةً عن جغرافيا أو بلدٍ جديدٍ حيوي للغاية، ومنفتح على التغير والتطور، تقطنه مجموعتان شعبيتان رئيسيتان متداخلتان (الآريون والساميّون) تُشكّلان معاً مجتمع القرية والمدينة والبدو. وكانت هذه الخاصيات بالغة الأهمية من ناحيةِ توجهِها لاحقاً -ودون تأخير- نحو خلق ثقافتها الحرة الخاصة بها. فهذه الثقافة التي تنامت على الأغلب للدفاع عن الذات ضد الحُكم الاستعماري السومري، كانت محليةً وتَتَّسِم بالمقاومةِ وبالخصائص الإثنية المختلفة. علماً أن شريعةَ (ثقافةَ) سيدنا إبراهيم تَعكس تلك الخصائص بأفضل الأشكال.

تُمَثِّل ثقافةُ سيدنا إبراهيم الاختلافَ والمقاومةَ ضد النماردة الذين يُمثّلون ملوكَ المدن السومرية. وما القصص الشهيرة التي تتحدث عن تحطيم الأصنام والرمي في النار، سوى سرود رمزية عن تلك المقاومة. بينما الحقيقة هي أكثر تعقيداً وأطول أَمَداً، وتمتد لتصل راهننا. ومن ناحية المضمون، فإن هذه الثقافة ترتكزُ إلى العقيدة التي تؤمن باستحالةِ أن يكون البشر (وبالتالي الملوك) آلهة. وتعتمد أساساً على العقيدة الإلهية الأكثر إنسانيةً وتناغماً مع

مصالح القبائل المحلية، التي تقاوم ضد العبودية الفظة والاستعمار العبودي وضد الحكام السومريين الذين أعلنوا أنفسهم ملوكاً-آلهة.

تشهد تلك الحقبة الانتقال حديثاً آنذاك من عبادة الطواطم القَبَلية إلى الاعتقاد بفكرِ الإله الأعلى، متأثرةً بدرجةٍ ملحوظةٍ بالميثولوجيا السومرية. فالابتعاد عن الطوطمية القديمة البدائية، أي عن الرؤية التي تؤمن بوجودِ إلهٍ لكلِّ عشيرة أو قبيلة، بل ولكل عائلة؛ والتوجهَ نحو الإيمان بإلهٍ واحدٍ لكل العشائر والقبائل المتشابهة، أي نحو الإيمان بالإله الأعلى "أل"؛ إن هذا الابتعادَ يتناسبُ مع مصالحها أكثر، ويُعَدُّ حدثاً ساهم في تمكين اتحادها بصورة أفضل. وتُعَبِّر عقيدة التوحيد (الإيمان بوجودِ إله واحد)، التي تُنسَبُ إلى سيدنا إبراهيم، عن تلك الحقبة. وتدلُّ مؤسسة النبوّة عموماً على هذا الإصلاح الديني، بل على الثورة الدينية التي اتسمت حينها بمعانٍ عظيمةٍ للغاية.

وعليه، فإن النبوّة تعني المؤسَّسة التي هيَّأت الأرضيةَ لبروزِ ثقافةٍ ودينٍ جديدَين يؤديان إلى نتائج تاريخية عظيمة، عبر مناهضتها لثقافةِ "المَلِك-الإله" السومرية من جهة، وللعقيدة الطوطمية القديمة القَبَليةِ من جهة ثانية. وبحُكمِ خصائص منطقةِ أورفا، كان لا بد لها أن تصبح مركزَ هذا التمأسس. أي أن العمق التاريخي للتوصيف: "أورفا، موطن الأنبياء المقدس"، يَعود إلى تلك الحقائق الغائرة. أما حالاتُ الإنكار واللعنة، التي برزت فيما بعد، فتُشَكِّل القطب المضاد للتطور الدياليتيكي.

وعلى نقيضِ ما يُعتَقَد، فإن ثقافةَ النبوّة لا تأتي من شبه الجزيرة العربية. فالحقيقة التاريخية تشير إلى أن أورفا والمناطق المجاورة لها قامت بتعديل المؤسسات العقائدية السومرية والنيوليتية وبإطراء الإصلاح عليها، لتنشرها في كل الجهات (بما في ذلك شبه الجزيرة العربية) اعتباراً من أعوام الألف الثاني قبل الميلاد. هذا هو معنى التوصيف "أورفا موطن الأنبياء"، والذي هو دلالة على إنجازِ النهضةِ في ذاك العصر. فبدلاً من عبادةِ العِباد (الملوك-الآلهة) والأصنام، يتم الولاء لإلهٍ مجرَّدٍ أكثرَ حريةً ومساواةً نسبةً إلى تلك الحقبة. هذا ما يُشكّلُ خطوةً تقدميةً تاريخيةً عظيمة، وبدايةً لعصرٍ جديد.

لا يقتصر الأمر في تلك المنطقةِ على سيدنا إبراهيم. بل ويُعَدُّ الأنبياء إدريس وأيوب ويونس ونوح خطواتٍ أكثر قِدَماً على دربِ هذه التقاليد. إذ إنهم يرمزون بالأغلب إلى الشخصيات الحكيمة التي تصدَّت باسم شعوبها للعبوديات السومرية والبابلية والآشورية، وخاضت الصراع الطبقي بلغةِ عصرها، ومَثَّلَت حرية القبائل الإثنية التي تنتمي إليها. أي أنه بالمقدورِ الحديث هنا عن مرحلة تاريخية. فالنظرُ إلى سيدنا إبراهيم على أنه الجدّ الأكبر لتلك التقاليد، يدل على الفترة التي برزَ فيها تأثير ونفوذُ تلك التقاليد، وعلى النجاحِ المؤزرِ للمقاومة.

يرجعُ الرسوخ الوطيد للنبوّة في ذاكرةِ البشريةِ إلى مساهماتها في إضفاء الأهمية الكبرى على كرامةِ الإنسان. فقَبلَ ذلك، كانت الرؤية

السائدة تشير إلى الملوك-الآلهة وإلى بشريةٍ مستَعبَدة تماماً. بالتالي، فإن خَرقَ تلك الذهنية وتحطيمَ قيودها يُعَدُّ خطوةً ثورية هي الأعظم في عصرها. بمعنى آخر، فإن تحطيم الأصنام يرمز في حقيقةِ الأمر إلى إلحاق أولِ ضربةٍ موفقةٍ لا مثيل لها بالنظام العبودي؛ وإلى تمكينِ استمرارية ذلك. والنبوّة هي تقاليدُ تلك الحقبة أو صيغتُها المؤسساتية. وقد ركَّزَ ما تَبِعَها من خطواتٍ على الإعلاء من شأن الدين التوحيدي، وعلى تطويرِ ماهيته وتوطيده محلياً.

أي أنّ ما يُشاهَدُ في كل ثقافة، قد شوهِد في مسار الشريعة الإبراهيمية أيضاً. فتَوَجُّهُ سيدنا إبراهيم إلى بلاد كنعان (إلى ما يُعرَف حالياً بفلسطين وإسرائيل) هو بسببِ الضغوط المتزايدة عليه من جانب، ولازدياد أهميةِ التجارةِ من جانب آخر. وبالتزامن مع هذه الفترة، التي يُعتَقَد أنها تصادف أعوام ١٧٠٠ ق.م، تبدأُ النبوّةُ بالانتشار في شبه الجزيرة العربية. فالعديد من القبائل الهورية ذات الأصول الآرية والقبائل العمورية ذات الأصول الساميّة، كانت تشهد حِراكاً مشابهاً. إذ كانت تهتم بالتجارة بين المراكز الحضارية المصرية والسومرية، وتؤسس إماراتٍ صغيرةً كلما سنحت لها الظروف. هذا ما كان يدل على الحاجةِ إلى الأيديولوجيا والقيادات المحلية. وبصورة عامة، فقد تمت تلبية هذه الحاجة عبر الهوية الأيديولوجية المرموز إليها بـ"أل"، والمتجهة نحو تكوينِ الدين التوحيدي.

تتجه القبائل التي تزعَّمَها سيدنا إبراهيم إلى مصر طيلة فترةٍ تُقاربُ الأربعة قرون، وتسعى إلى الاستقرار هناك كعُمّالٍ عبريين فقراء (تأتي مفردة "عبري" من لفظِ "عابيرو"، والتي تعني "رجل الصحراء المغبرّ". وفي اللغة المصرية تعني "الرجال الوسخون المغبرّون"). وبسبب الضوائق المتزايدة التي عانت منها تلك القبائل ومساندتها للتمرد، فإنها تبدأ بالمسيرة التاريخية بالخروج من مصر بطليعةِ سيدنا موسى في نهايات أعوام ١٣٠٠ ق.م. وتنتهي هذه المسيرة، التي يُخَمَّن أنها استمرت أربعين عاماً، بالاستقرار فيما يُعرَف اليوم بأراضي فلسطين وإسرائيل؛ وذلك بعد اشتباكات عنيفةٍ مع القبائل المحلية، تماماً مثلما هي الحال اليوم.

يرتقي سيدنا موسى بشريعة الدين التوحيدي، بإضافة "الوصايا العشر" الشهيرة والمهمة. في حين تَمَكَّنَ كلٌّ من النبيَّين داوود وسليمان من الوصول بتلك التقاليد إلى تأسيسِ المَلَكيةِ لأول مرةٍ في أعوام الألف قبل الميلاد. هكذا غدا سيدُنا موسى الشخصَ والنبيَّ الذي نجحَ لأول مرةٍ في إضفاء الطابع القومي على الدين التوحيدي. إذ وَحَّدَ القومَ اليهودي بناءً على هذه الشريعة الدينية، وذلك بترهيب القبائل المتناثرة وبُناها التي لا تقبل يسيراً بالوحدة المركزية، وبإرضاخها للإله "يهوه"، الذي يُمثّل مجدداً "أل" الأعظم والأعلى.

سوف تنمُّ هذه الحملة أيضاً عن نتائج تاريخية كبرى. لا سيما وأنها ستؤسِّس حول القدس ثانيَ مركزٍ للنبوّة بعد أورفا. لذا، تنتهل مدينةُ القدس (المُشتقّةُ أصلاً من مفردة "القدسية") جوهرَها من

ثقافةِ أورفا، ولكنْ بعد تعديلِها والنجاحِ في تمكينِ طابعِها المحليّ. وقد أفضى تأسيسُ أول مملكةٍ في القدس إلى التمييز بين الساحق والمسحوق. إذ اغتَنى بعضُ اليهود ليصلوا مرتبةَ الكهانة الرسمية، في حين عانت الشرائحُ الفقيرة من الإقصاء، ما دَفعَها على الدوام إلى تشكيل الطرائق الدينية المعارِضة. يتأثر سيدنا عيسى (المسيح) في تلك الفترة بالطريقة الأسينية التي تمثل الفقراء، ويُنجزُ حملتَه المعروفة بتقديسِ سيدنا يحيى. هذه الفترة التي تعني الميلاد، تُعبِّر في حقيقتها عن النقلة التي حققتها الأديان التوحيدية، بتَوَجُّهها من المستوى القَبَلي والقومي إلى المستوى العالمي.

ولأول مرة في تاريخ الأديان، يبشِّر سيدنا عيسى ببدء عصر جديد مع رؤيةِ "الثالوث"، أي الأقانيم الثلاثة، التي لا تُميِّزُ بين القبائل أو الأقوام أو الطبقات. فتتردد أصداؤها بالأكثر بين الشرائح الفقيرة المقهورة. إذ كانت الفلسفةُ الإغريقية والوحدة السياسية في روما قد هيَّأت الأرضيةَ المادية والفكريةَ اللازمة لذلك منذ زمن بعيد. هكذا، فإن المسيحية الممثلة للدين الجديد، الذي غدا يرمز موضوعياً إلى سيدنا عيسى، اقتاتت من تلك المصادر الثلاثة لتُحقِّق تطورات كبرى. ويتأتى نفوذُها الكبير من تلك الشروط المناسِبة لإنجازِ حملةٍ هي الأقوى في تاريخ العالم. لذا، فإن دورَ سيدنا عيسى كبير في تشكيل الضمير الإنساني. من المعلوم أن سيدنا عيسى دُعِيَ إلى أورفا قبل أن يُصلَب. لكنه كان سيمضي عمداً إلى القدس -على الرغم من إدراكه خطورةَ ذلك- لكشف النقاب عن زيف ورياء الكهنة اليهود

الرسميين. وبالمستطاع القول: لو أن سيدنا عيسى لَم يتَّجه إلى هناك، لَكان مسار التاريخ مختلفاً تماماً.

يُعنى الجوهر الأساسي للدينِ العيسَوي بالضمير. إذ يتطلع إلى عدم نسيان البشرية المسحوقة التي تئن من الألم، وإلى لَمِّ شمل البشر ونيلِ حريتهم. لكن، وبعد أن غدت المسيحيةُ عقيدةً رسميةً ودِيناً رسميّاً لبيزنطة مع أعوام ٤٠٠ للميلاد، كانت وِجهَتُها ستنعكس؛ لتساهم في تمكينِ تبعيةِ المسحوقين للدولة، ولتنزلقَ روحُها التقدمية تدريجياً إلى الزوايا البعيدة، ولتَسقطَ بالتالي في الرجعيةِ داخل مراكزِ الدولة والمدنية.

كانت ثالث خطوة كبرى للشرائع الإبراهيمية التي تنتهل منبعها من أورفا، وتَوَجُّهُها نحو التأصل والتوطد والتحول محلياً، كانت ستُخطى في أعماق شبه الجزيرة العربية، أي في مدينة مكة وجوارها. فبهذه الخطوة كان سيدنا محمد سيُطرئ إصلاحاً مكثفاً على الشكلَين الأوليَّين من شرائع الأديان التوحيدية، أي على الموسوية والمسيحية. هكذا تحولت مكة وجوارها إلى ثالث ساحة مقدسة، بعدما كان معبدها -أي الكعبة- مركزاً يحتوي ٣٦٠ صنماً. أي أنه لم تَكُن لها علاقة بالأديان التوحيدية، بل كانت تسودها حياة طوطمية دينية معقدة وبدائية للغاية. لذا، كان المركز الديني الثالث سيتكون مع سيدنا محمد، ليبدأ بذلك عصر تاريخي جديد. وقد اهتمّ سيدنا محمد أساساً بتوحيد كل القبائل العربية الرجعية ذات الأصول الساميّة حول مصطلح "الله الواحد الأحد الذي لا شريك له". ذلك

أن انتعاش التجارة وتواجد الإمبراطوريات البيزنطية والساسانية والحبشية القوية في الجوار، كان يُحتّم تعزيز وحدة القبائل العربية دون بد. وقد وُلِد الإسلامُ كهويةٍ أيديولوجية جديدة لتلبية هذه الحاجة الضرورية.

أي أن التغلب على خصائص الحياة القَبَلية المشتتة والمتناقضة مع القبضة المركزية، والتحلي بالقوة والنفوذ المركزيين، كان يُحتِّم تطوير مصطلح "الله" بكل عناية وعمق. وتكمن المهارة الكبرى أو نُبُوّةُ سيدنا محمد في انتباهه إلى هذه الحاجة، وفي تلبيته إياها. وقد تَميَّزَ سيدنا محمد بالنباهة التي مَكَّنَته من إنجازِ حملته الهادفة إلى تحقيقِ أعظم ثورة في العصر الإقطاعي وبسرعةٍ لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، ليستطيع تعزيز أعظم نقلةٍ شهدتها العصور الوسطى.

كما إن إعلان سيدنا محمد انتهاءَ عصر النبوّةِ يدل على التبشير ببدء عصر العقل ونضوج البشرية. فالنبوّة تدل على الشخصية الطليعية للمرحلة التي ترى الخلاص في الدين والقوة الإلهية بالأكثر. لكن تطور الفلسفة والعلم كان ينقل الإلهيات إلى الدرجة الثانية. فأسلوب التفكير الديني هو شكل التفكير المرتبط على الأغلب بالعصرَين العبودي والإقطاعي. بينما يؤكد ظهور الفلسفة على تجاوز عصر الأفكار الدينية. لذا، كان سيدنا محمد أكثرَ شخصية راعَت التفسيرَ الديني بالعقل، لإدراكه العميق للجوانب الضعيفة في الدين. إذ إنه استنبطَ من المصاعب العملية التي عاناها أن "الوحي" لن

يُشبِع ظمأ البشر بعد الآن. بالتالي، فهو يُمثِّل الذروة الأخيرة للفكر الديني، إذ يليها عصر العقلانية.

من المؤسف حقاً أن الحكماء الإسلاميين عجزوا عن تشخيص هذه الحقيقة، وعن تحديد ملامح الإصلاح الديني العظيم الذي أنجزه سيدنا محمد، لتأمين سيرورته من بعده. خلافاً لذلك، فقد مَهَّدوا السبيل لأفظعِ عصبيةٍ في الدين الإسلامي. إذ بدأ التَّزَمُّت العصبي مع وفاة سيدنا محمد، ما تسبَّب في سيادة أكثر المراحلِ الرجعيةِ جذريةً في الحضارة الشرق أوسطية خلال بضعة قرون فقط، ليَتَّجه مسار البشرية نحو الهاوية، بعدما كان في صعود مستمر طيلة خمسة عشر ألف سنة. فبعد الفوضى التي سادت بين أعوام ٨٠٠م-١٢٠٠م، تسارعت طردياً وتيرةُ التهاوي والأزمة والتفسخ. في حين أن مسار الصعود الحضاري كان سينطلق مجدداً في القارة الأوروبية عبر العلم التجريبي.

ضمن هذا الإطار التاريخي، كانت ميزوبوتاميا عموماً ومنطقة أورفا وجوارها خصوصاً ستفقد قدسيتَها القديمة، لتَحلَّ اللعنة محلّها كنقيضٍ لها. هكذا بدأ عصرُ الظلمات والتقزم في موطنِ الأنبياء المقدس، وبدأ تاريخٌ مؤلمٌ -ولكنه حقيقيٌّ- من الفساد والبَلادة والرجعية يَنصب شِباكَه فيها كالقدر المحتوم. فصارت الثقافة والأراضي التي قدَّمَت أعظم المساهمات للحضارة العالمية، تتعرضُ للخيانات المتوالية على يد أصحابها الجدد.

حدثت موجةُ الخيانة الأولى على يد السلالات الأموية والعباسية التي غزَت المنطقة. إذ استشرَت عنجهيةُ أغوات الحروب في المنطقة كما تنتشر العقارب، فكانوا لا يفقهون سوى الدوغمائية الدينية الجوفاء والعنف الفظ في نيل النتيجة وتحقيق المآرب، ولا يلتزمون بأي مبدأ. أما مراحل الغزو والاستيلاء التي تلت ذلك، فلم تتعدَّ إطار التكرار الأسوأ لذاك الطراز. فعَجَّت أورفا والمدن المماثلة بنماردةٍ جددٍ أنكى ألفَ مرة من نماردة السومريين والآشوريين. وامتلأت كل الأماكن بالبيادق الدُّمى الذين هم أسوأ من الأصنام.

هكذا أدى العصر الإقطاعي دورَه من البداية وحتى النهاية في تعمية الوعي البشري والنخر في الضمير الإنساني حتى النخاع، لتشهدَ البشريةُ عصراً مماثلاً لعصرِ "لعنة أكاد". فتحولت الأغاني عموماً إلى رثاء ونحيب وبكاء يتحدث عن الآلام الناجمة عن تلك اللعنة. ووُضِعَ تاجُ اللعنة والإنكار على رأس التقاليد والمقدسات الإبراهيمية، لتنتقم بذلك الثقافةُ الإقطاعية الحاكمة من الثقافة الإنسانية المقدسة.

وخيرُ دليل على ذلك هو أنْ يَصُبَّ ما يسمى "مجلس الأسرة" جامَ غضبه ووحشيته على رأس فتاةٍ جميلةٍ يافعة في الخامسة عشر من العمر، لا لشيءٍ سوى لأنها طمحَت -ولو قليلاً- إلى الحياة الحرة، فعُدَّ ذلك جُرماً لا يُغتَفَر. أما الرجل الذي يتشبث بقوةٍ بما يُسمى "الشرف" (الذي يمثل في مضمونه قمةَ اللاشرف)، فإنه ينظر

إلى أكثر حالاتِ الحرية الجنسية شذوذاً على أنه حقٌّ من حقوقه، في حين أنه يُجابَه تطلعُ المرأة إلى الحريةِ بأشدِّ العقوبات.

إن هذه ظاهرةٌ تدلُّ على الوضع العام السائد. فهذا الواقع اللعينُ يهيمن في الحقيقةِ على كل مناحي الحياة. وما دام الجميعُ يحاولون فك طلاسم شهرةِ الأغاني الأليمة والفلفل الحار في أورفا، فإن لُبَّ الأمر يكمن في هذا الواقع. هذه الطبقة الخارجية الرجعية التي تشكلت على مرّ ألف سنة، أصبحت لا تُطاقُ بعد تكاثُفها ملتحفةً بغطاء الرأسمالية في القرن العشرين. إذ يُرادُ لهذا الوضعِ العقيمِ أن يستشري أكثر مع تحقيق التزاوُجِ الشنيع بين الرأسمالية والإقطاعية.

على الرغم من ذلك، فإن الحقيقة الأخرى التي ستتجلى أمامنا عندما نُميطُ هذا الغطاء الرجعي، هي أنه ثمة جوانب إنسانية حقيقية تكمن في كلِّ ذرةٍ في القاع. أي أنه ثمة وجهان لهذا الواقع: ففي الوجه الأول هناك الكيانات والبنى الذهنية والروحية والمؤسساتية اللعينة المرتكزة إلى إنكارِ وتدمير وإفساد كل القيم النبيلة. وفي الوجه الثاني الأعمق هناك المؤسسات العامرة بالقيم الروحية والذهنية الإنسانية الحقيقية، والمشحونة بقداسة الأنبياء. إننا وجهاً لوجهٍ أمام ديناميكتيك تاريخي معقَّد ومؤلم وعصيب للغاية، ولكنه واقع حقيقي ومنفرد بذاته. هذه الروابط الديناميكتيكية هي القضية الأساسية التي تتطلب التحليل. والسبيل الوحيد إلى ذلك يمر من الذهنية العلمية المتسمة بمنتهى الدقة والحساسية.

لقد حاول PKK تجربةَ ذلك في واقعِ أورفا الملموس، ربما دون أن يدرك هذا الواقع بكل أعماقه. لكنّ الحقيقة التي لا جدال فيها، هي أنه سعى إلى ذلك في سبيل الحرية والتنوير. وخير دليل على ذلك هو أنّ أولى عملياته العسكرية استَهدَفَت بُؤَرَ الرجعية الإقطاعية أكثر من استهدافها لمؤسسات الجمهورية التركية.

انطلاقاً من ذلك، فهل يمكن توصيف PKK بأنه حركة إبراهيمية معاصرة؟ يبدو أنه ثمة تشابه ملفت للأنظار على صعيد النوايا. فاستهدافه للأوساط اللعينة وللنماردة الصغار هو خطوة تقدمية باسم الإنسانية، وليس باسم الديمقراطية والوطنية فحسب. كما إنه لا يتناقض مع الطابع الجمهوري، بل ويُعَدُّ ضرورةً طبيعية له. فإذا كنا لا نرغب في وصم الجمهورية بالزيف، فمن الضرورة أن تَكون مناهِضةً للإقطاعية. وإذا كان يُرادُ حقاً التقدم والتطور وفق المعايير العلمانية والديمقراطية، فسيصبح ممكناً القولُ أن PKK والجمهورية التركية قد حقَّقا تحالفَهما الطبيعي.

كان التحالف الكردي-التركي، الذي تأسس موضوعياً وعن إيمانٍ وقناعة في عشرينيات القرن العشرين في مناطق عينتاب وأورفا ومرعش، كان يتسم بروح الأخوّة المنفتحة على الحرية وعلى محاكاة العصر. لكنّ عدم تفعيل قوانين ومعايير الأخوّة بسبب التمردات اللاحقة والنزعة القومية المتطرفة كان سوءَ طالعٍ كبير. إذ أفضى إلى سد الطريق أمام تطورِ مرحلةٍ تاريخية بالغة الأهمية، وإلى إتاحة الفرصة لانتعاش الإقطاعية مجدداً.

وعليه، فإن PKK بجانبه هذا يبحث عن خصائص الحرية والأخوّة في الجمهورية التركية. وأكثر ما ينبغي انتقادُه فيه، هو عدم تصرفه بوعي كافٍ، وعدم تَحَلّيه بالمهارة السياسية المطلوبة في سبيل تمكين ذلك. إلا إنّ النظر إلى جوهرِه على أنه انفصاليٌّ تماماً، هو تقييم متطرف. لقد تَمَثَّل PKK حتى النخاع شعارَ "لا وحدة من دون حرية". لذا، لا يمكن القبول بالمزاعم التي تروّج أن PKK يطالب بدولة كردية قومية منفصلة تحت كل الظروف والشروط. بينما يكمن النقص أو الخطأ الذي ارتكبَه PKK في أنه لم يستطع إبداء المهارة في تطوير التنظيم والممارسة بما يتناسب مع الوحدة الحرة وفق نهجٍ سديد. فإمكانيات ذلك كانت متوفرة.

ربما كان PKK يُشكل الحركةَ الأكثر جديةً وقدرةً على تقديم أعظم مساهمة لأجل ترسيخ جمهوريةٍ ديمقراطية وعلمانية على هذا الدرب الصحيح، دون اللجوء إلى العنف عموماً وإلى العنف الذي يتخطى إطار الدفاع المشروع خصوصاً. وعليه، لا يمكن اتهام أو انتقاد PKK إلا في هذا الأمر فقط. وإلا، فمن ناحية النوايا والجهود والتضحيات، فإنه يأتي في مقدمة الظواهر والأحداث المرشَّحة لأن تَكون حركة مقدسة حقيقيةٍ تليق بأورفا والمناطق المشابهة في القرن العشرين.

لا أرى داعياً هنا لتكرار النقاط التي ذكرتُها في المرافعة العامة بخصوص PKK. لذا، أكتفي بالقول أنها تسري على أورفا أيضاً.

الأمر الأهمّ بالنسبة إلى PKK ومنطقة أورفا، هو مدى القدرة على البدء بانطلاقةٍ لقداسةٍ إبراهيميةٍ معاصرةٍ تُواكبُ القرن الحادي والعشرين. والأهم من هذا وذاك هو: هل وَفَّرَ التحولُ الذي مرَّ به PKK الوعيَ والوجدانَ اللازمَين للقيام بهذه المَهمّة؟ يمكنني القول أن PKK لن يستطيع إنجاز هذا التحول ثانيةً في المنطقة بهويته واسمه القديمَين، وأنه لا معنى لذلك تاريخياً. وبنفس المنوال، عليَّ التبيان أن الجمهورية التركية أيضاً لن تكسبَ شرعيتها في المنطقة بالتحالف الإقطاعي القديم. بل ولن تُشرعِنَ ذاتها إلا بتفعيل الآليات المعاصرة لنمط الجمهورية الديمقراطية، وبالعودة إلى روح التحرر الوطني المشترك، الذي تحقق في عشرينيات القرن الماضي بفضل الوحدة الطوعية.

أما محاولةُ نقل البنية الإقطاعية إلى القرن الحادي والعشرين، وحظر حرية التعبير عن الوجود الثقافي، فلن يفيدا إلا في تمهيد الأرضية للنزعة الانفصالية. وعليه، فإن الوحدة الراسخة تمر من تمكين الحريات والمصالح المشتركة. بمقدورِ هذه الحقيقة أن تُوَلِّدَ وحدةً مبنيةً على التآخي من أحشاء مخاضات الربع الأخير من القرن العشرين. أما ممارسات العنف المتبادل والتشكيك والإنكار، فلن تثمر عن شيء أبعدَ من تسميم الأجواء وإفساح المجال لموجاتِ عنفٍ جديدة.

ومثلما الحال بالنسبة إلى عموم الشرق الأوسط وتركيا، فإنه لا يمكن لأورفا وجوارها أيضاً -والتي تُعَدُّ إحدى أهم المناطق- أن تبدأ

بولادةٍ جديدةٍ حرة، إلا إذا تَمَثَّلَت معاييرَ الحضارة الديمقراطية وأَنعَشَت ماضيها ثانيةً وفق تلك المعايير. فإذا تحركت بالترابط الوثيق مع التحولات الديمقراطية الحاصلة عموماً، فستلعب دوراً يليق بتاريخها مرةً أخرى. أما تأمينُ تدفق نهر الفرات نحو السهول، فيشكل أرضية مادية منيعة للبدء بحملة حضارية جديدة. وتَعرُّفُها منذ الآن على التقنيات الأكثر تطوراً، يدل على خطوةٍ عظيمة على درب الحضارة الديمقراطية. لكنّ أهم عائق أمام التطور هو الذهنية والمؤسسات الإقطاعية من جهة، وعدم وصول الجمهورية إلى العمل التام بالآليات الديمقراطية والعلمانية من جهة أخرى.

عندما سيسعى PKK مستقبلاً إلى تجديد نفسه وزيادة نفوذه، فإنه لن يحقق ذلك إلا بتخَطّي تلك النواقص والأخطاء. فهو مرغَم على تكييف نفسه والتحول إلى مؤسسة ديمقراطية قانونية. ومن خلال طرح مشروعِ مجتمعٍ مدنيٍّ شامل للغاية، سيُقدِّم أهم المساهمات من أجل تمكين السلام والتحول الديمقراطي على السواء.

تتميز مشاريع المجتمع المدني بأهمية مصيرية بالنسبة لأورفا وجوارها. أما المفاهيم التقليدية بشأن المجتمع والدولة، فدعكَ من أن تُحققّ تقدماً ما، بل لن تخدم سوى الرجعية والتَّعصُّب. فهذا الطراز من الرؤية لن يفسح المجال كثيراً أمام التطور والتحول؛ سواء ائتَمَر المجتمع بإمرة الدولة كلياً، أم سخَّرَت الدولة كل شيء في خدمة المجتمع. فهذا الأسلوب ليس خلاّقاً، بسبب افتقاره إلى

المبادرات الفردية، وعدم استناده إلى منظمات المجتمع المدني العصرية. كما إنه يُبقي على طراز السمسرة والمقاولة منتعشاً كرؤيةٍ سياسية. والسمسرة في جوهرها مضادةٌ للإنتاج والإبداع.

بالتالي، يمكن للمنطقة أن تدخل مرحلة التحول الديمقراطي، من خلال عددٍ جمٍّ من منظمات المجتمع المدني، التي تَكون على تواصل وتنسيق فيما بينها، وتُنظّم ذاتها في جميع الساحات الاجتماعية البديلة وفق برنامج خاص بها، وتتحرك برؤيةٍ سديدة وبطرازِ عملٍ سليم. لا يمكن للتنمية المادية اللازمة من أجل "مشروع جنوب شرق الأناضول" أن تبلغ معانيها الحقيقية إلا بهكذا مشروع ديمقراطي. ذلك أن الديمقراطية والتنمية المادية مرتبطتان ببعضهما بعضاً كارتباط اللحم بالظفر. وعليه، فإذا تطوَّرتا معاً، فستسفران عن نتائج سليمة أكثر.

والحال هذه، فإذا عُدنا مرةً أخرى إلى أورفا في عهد سيدنا إبراهيم، وقارنّاها بيومنا، فماذا سنَجِد؟

كان تَوَجُّهُ سيدنا إبراهيم إلى بلاد كنعان بدايةً لتطورٍ تاريخي عظيم. إذ أسفر عن ولادة الدين التوحيديِّ في الثقافة النبوية، وعن تَشَكُّلِ عالَم الأخلاق والإيمان بالله؛ ليؤثر بذلك في عموم التاريخ البشري. وقد أثبَتت الإنسانيةُ التي وُلِدَت في منطقةِ أورفا وجوارها أنها جديرةٌ بذلك حقاً، من خلالِ بلوغِها المستوى العالمي. لكنها

اليوم تقف في المؤخرة وقد حَلَّت عليها اللعنة، لتغدو وجهاً لوجهٍ أمام نهضةٍ وميلادٍ جديدَين.

لقد حاول PKK أداء هذا الدور بتَكَفُّلِ المهام التي عجزَت الجمهورية عنها. لكن، من الصعب القول أنه نجح في ذلك تماماً. إذ لا يمكنُ إنجاحُ ذلك إلا بالجهود المشتركةِ الرامية إلى التفعيل الحقيقي لمبادئ الجمهورية العلمانية الديمقراطية، وبالحِراك المشترك العامر بروح الأخوّة في أجواءِ السلام المستدام. لا بد من ترسيخ التحالف الأول والأصلي مرةً ثانيةً بين الشعبين التركي والكردي وفق هذا الإطار، وانطلاقاً من الالتزام الحميم بالذكريات الحية لِما شهدته عشرينيات القرن الماضي. هذا هو التحالف الأصلي الذي يحدد المصير، والذي يعتمد على الوحدة الحرة، ويتخذ من حرية التعبير عن الوجود الثقافي أساساً.

يزداد الاهتمام الدولي بالمنطقة مع مرور الوقت. ولكن، من الخطأ إرجاعُ ذلك كلياً إلى الأهداف الاستعمارية. إذ لا يمكن النسيان أبداً أن الممارسات الاستعمارية تنامت هنا باستمرار منذ عهد السومريين. وعليه، بالمستطاع قبول اهتمام تلك القوى الدولية، في حال اتخاذها من قيم الحضارة الديمقراطية مقياساً، وعَقدِها علاقات التضامن والشراكة بناءً على ذلك. هذا هو الصحيح. بهذا الشكل يُمكنُ لأورفا وجوارها أن تُثبِتَ بما يليق بتاريخِها من نُبلٍ وسُمُوّ، أنها قادرةٌ على التحول إلى مركزٍ حضاريٍّ عابرٍ للدول. وهذا ما مفادُه تَبَنّي إرث هذه المنطقة المُوَلِّدةِ للحضارات مرةً ثانية،

والنجاح في إطلاق العِنان ثانيةً لانطلاقةٍ حضاريةٍ جديدةٍ تؤثر في عموم منطقة الشرق الأوسط.

علاوةً على ذلك، فإن الصراع الذي بدأ في عهد سيدنا إبراهيم بين القبائل العبرية والقبائل الساميّة، ما يزال مستمراً في راهننا على شكل الصراع العربي-الإسرائيلي. فالطرفان لا يَقبَلان بالسلام بينهما على أية حال. والسبب في ذلك هو ابتعادُ كِلا الطرفَين عن دينِ سيدنا إبراهيم وعن جوهره. بالتالي، يمكن لأورفا وجوارها أن تلعب دوراً تاريخياً في حلِّ هذا الصراع التاريخي أيضاً. إذ يمكن للقضايا الإنسانية أن تَجِدَ حلولاً ثمينةً أكثر ضمن شروط المَهدِ الذي وَلَّدَها. فمزاعم العرب واليهود بأنهم أصحاب حقٍّ في المنطقة، لم تتناقص منذ القديم. فعُروبةُ حَرّان هي حقيقةٌ قائمة. وإسرائيل أيضاً تستقر في المنطقة تدريجياً من خلال "مشروع جنوب شرق الأناضول"، معتمدةً في ذلك على التقنيات العالمية وعلى الرأسمال العالمي. كما إن الرأسمال العربي يتبنى مقارباتٍ مشابهة. ولكِلَيهما حلفاء أقوياء يؤدون دور الوساطة في الداخل.

لكن، على كِلا الطرفَين أن يدركا منذ الآن أن أية مساعٍ استعماريةٍ على الطراز السومري لن تُجديَ نفعاً. ويجب ألاّ تُغريهما معاناةُ شعب المنطقة من الفقر والجراح غير الملتئمة، بالتعويلِ سُدىً على أحلامٍ وخيالات خاطئة. أما المقاربة الصحيحة، فتتجسد في الدخول إلى المنطقة بالتحلي برؤيةٍ تعتمدُ أساساً على تكريس السلام والتسامح بين كافة الشعوب والثقافات، وعلى صياغة

الحلول للقضايا العالقة في الشرق الأوسط وفق المعايير الديمقراطية.

للشعبَين الآشوري والأرمني أيضاً جهود كبيرة في المنطقة. لذا، ينبغي التجاوب مع تطلعاتِهما بكل احترام. ذلك أنه للآشوريين والأرمن آثارٌ لا تُمحى في ثقافةِ أورفا.

والحال هذه، فإنّ التضامن الحضاري الديمقراطي الأممي، بل والذي يتعدى حدود الدول ويعتمد على كل تلك العناصر الأصيلة المذكورة؛ سيَغدو مُواكَبةً رائعةً للعصر، وسيؤدي إلى إعادة دمج الديمقراطية البدائية المفقودةِ منذ انهيار المجتمع الزراعي النيوليتي مع الديمقراطية المعاصرة، لتَبلغَ مستوى تصبحُ فيه من أهم أجزاء التركيبة الحضارية الجديدة العليا. بهذا النحو يمكن لشريعةِ سيدنا إبراهيم أن تتعولَمَ ثانيةً وفق المقاييس العصرية، وأن تتحول إلى خزينةٍ مشتركة للبشرية. وبذلك فقط سيغدو بمقدورِ أورفا الجديدة والشرق الأوسط الجديد أن يَبلغا منزلةً تليق بدورهما التاريخي.

وبالنتيجة، فإنّ الثقافة النبويةَ وشريعة سيدنا إبراهيم (الذي يُعَدُّ السَّلَفَ المؤسس لها) بحاجةٍ ماسةٍ إلى تفاسير وممارسات معاصرة كضرورةٍ بالغة الأهمية. فكلما حَدَّدنا مكانةَ ومسارَ تطوُّرِ أورفا وجوارها بالشكلِ الصحيح ضمن تاريخ البشرية، كلما تَوَلَّدَت إمكانيةُ تقييمِ راهننا برؤية تنويرية أكثر. ذلك أنه لا يمكننا صياغة رؤى وتَصَوُّرات ثمينة بشأن المستقبل، ما لم نحلل التاريخ بعين سليمة.

تَعُود ثقافة القداسة، وكذلك التقاليد النبوية والإبراهيمية التي تُعَدُّ جزءاً منها، والتي ما تزال تُثَمَّنُ عالياً في المنطقة؛ تَعُود بجذورها إلى الثورة الزراعية التي تَحَقَّقت لأول مرة في التاريخ. وما تزال آثار تلك الثورة قائمةً وعميقةً في هذه المنطقة. والقداسةُ هي انعكاسُ هذا الواقعِ على العالَم الذهني والروحي، وتُعَبِّرُ في جوهرها عن المشاعر والأفكار الناجمة عن تربية الحيوان وزراعة النبات، وبالتالي عن النعيم بغذاءٍ وفيرٍ لأول مرة. وهي تُفسحُ الطريقَ تأسيساً على ذلك أمام الميثولوجيا والفكر الديني والسلوكيات الأخلاقية.

عندما تَطوَّرَ الحُكمُ السومري (الذي يُمثِّل أولَ مجتمع طبقي يتأسس على فائض الإنتاج) بنحوٍ استعماري، تجسدت ردود فعل شعوب المنطقة تجاهه في خوضِ المقاومةِ والمؤسساتية على الطراز "النبوي"، الذي تركَ آثاراً عميقة في التاريخ. وكانت الأحداث اللاحقة ستسير على هذا الدياليكتيك التاريخي. فالمقاربات الاستعمارية التي بدأت مع السومريين وما تزال مستمرةً في راهننا، هي على تناقض جوهري مع ثقافة القداسة. إذ تعتمدُ الأخيرة على الكدح وعَرَق الجبين، وعلى التضامن والتآخي الإنساني العميق والنبيل؛ بينما تعتمد الأولى على الاستيلاء والهيمنة والقمع. وقد رَسَمَ التاريخ معالمَ أحد أعمقِ مكامن التطور انطلاقاً من هذا التناقض، ليصل هذا الوضعُ في يومنا إلى الانسداد التام والعقيم. إذ يتلوّى الإنسان باسم الحياة، ويعاني من التخلف الذهني والروحي العميق، ويَسودُ التردّي والسقوط والتشوُّه والتشوُّش.

إن هذا الواقع يُحتِّم إنجاز الولادةِ والنهضة مجدداً. ذلك أن الحضارة الديمقراطية المعاصرة لم تنعكس على المنطقة. أما التأثيرات الآتية من الخارج، لا سيما بالتزامن مع "مشروع جنوب شرق الأناضول"، فلا تدل سوى على تكرارٍ معاصرٍ للاستعمار السومري. إذ إن الرأسمالَين العربي والإسرائيلي، اللذَين ينتميان إلى نفس الجذور الساميّة، واللذَين يشهدان صراعاً محتدماً فيما بينهما؛ يحاولان غزو المنطقة مجدداً مثلما كانت الحال في التاريخ، ويحققان التقدم خطوةً خطوة عبر المتواطئين الأقوياء المناصرين لكل منهما.

أما البورجوازية التركية، التي تمثِّل القوة العسكرية والسياسية الإقليمية المهيمنة، فلم تستطع تأسيس احتكارها الاقتصادي كما تريد. لذا، فهي تسعى إلى تكريس هذا النظام الاقتصادي عبر شبكة واسعة من الحلفاء الخارجيين. في حين أنها تُقصي الكردَ تماماً في هذا السياق، على الرغم من أنهم شعبٌ كادحٌ آهلٌ في المنطقة منذ خمسة عشر ألف عاماً. علماً أن الكرد يمثّلون القوة الإثنية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية الأساسية.

بالتالي، ينبغي العلم تماماً أنه يستحيل ترسيخ حتى النظام الاستعماري المعاصر رغماً عنهم، ويجب ألاّ يُخدَع أحدٌ بالتخلف والتشوش الكبيرَين السائدَين في الوعي الكردي، ولا بتشتُّتِ صفوفهم. زد على ذلك أن المؤسسات الدينية والطرائقية الزائفة

محكومٌ عليها بالانحلال السريع، وأنها بعيدةٌ كل البعد عن أنْ تكون سنداً طويل المدى للجبهة الاستعمارية.

ثمة حقيقةٌ أخرى، وهي أنّ الشعبَين الكردي والتركي قد عاشا في المنطقة بنحو متداخل حوالي ألف سنة. ونمطُ الحياة المتداخلةِ هذا، والذي اعتَمَد بالأكثر على الطواعية والوحدة الحرة، قد قدَّم مساهمة مهمةً في حملة التحرر الوطني ضد الإمبريالية في عشرينيات القرن الماضي. لكنّ الجمهورية التي أُعلِنَت وتأسست لأول مرةٍ كإحدى أولى الخطوات الثورية العميقة في منطقة الشرق الأوسط، لم تستطع تفعيل وتحقيق التحول الديمقراطي المرتَقَب، بسببِ قمعِ التمردات بأساليب فظة قاسية، وبسبب اعتمادها على المؤسسات الإقطاعية. فجاءَ الردُّ على ذلك بولادةِ ظاهرة "حزب العمال الكردستاني PKK". لكنّ هذه الظاهرة المستجدة التي فتحت الطريق أمام فترةٍ مؤلمة، لم تتطلع إلى الانفصال، بل إلى الوحدة الحرة المعاصرة.

من أهم الدروس التي يتوجب استخلاصها من "قضية أورفا" المعنية بPKK، هي الابتعاد بنحوٍ متبادل عن التصرفات التي تؤجج العنف والانفصال، والتَّبنّي السريع للمقاربات التي تسمح بتكريس وحدة التآخي الحقيقية. والسبيل إلى ذلك تمر من تثمين الأجواء السلمية، والاعتراف بحرية الشعوب في تعبيرها عن وجودها الثقافي، والعمل أساساً بالمعايير الحضارية الديمقراطية في حل جميع

القضايا. من الواضح جلياً أن هذه المقاربة هي من ضرورات البنية العلمانية والديمقراطية الحقيقية للجمهورية.

إن المهمة المُلقاة على عاتق كل العناصر الواعية من أبناء الشعبَين الكردي والتركي، وفي مقدمتهم PKK، هي تسخير كافة الطاقاتِ في سبيل تشكيلِ وتطبيقِ خيارِ الحلِّ السديد اعتماداً على مشروع المجتمع المدني الشامل، بهدف تمكين الجمهورية العلمانية الديمقراطية. وينبغي العلم يقيناً أن هذا هو سبيل الحل الأصح، وأن أيّ طريق أو أسلوب عداه لن يؤدي إلا إلى تأجيج نزعات الانفصال وتصعيد العنف والإنكار والمخاضات، وإلى سيادةِ أوضاع عقيمة يصعب النفاذ منها. أي أن كل شيء مرهون بالسير على طريق الحل السديد، وبتشكيلِ وإنجاحِ حركة السلام، وبإعلان النفير العام الديمقراطي في سبيل بناء مستقبل واعد تتحول فيه مخاضات الماضي إلى قوة حرة ووعي حر.

بالتالي، وعلى هدى هذا التعريف الجوهري، ما الذي يعنيه الشرح والتفسير الإبراهيمي المعاصر للقضية الأساسية في المنطقة ولسُبُل حلها؟

١- يجب قبل كل شيء إخضاع الأديان التوحيدية للنقد والمساءلة العميقة، أي أنه ينبغي تجديد الخطاب الديني بما يناسب جوهرها. هذا شرط ضروري للدنو أكثر من حقيقةِ الأديان الإبراهيمية ولنيل الحرية. وإلا، فإن

تَقمُّصَ هويةٍ أيديولوجيةٍ توفر الغطاء لمصالح كل الطبقات الحاكمة والاستغلالية، لا يعني الالتزامَ بالأديان الإبراهيمية. وعليه، فإن الاكتفاء بالعبادة في الجامع والكنيسة والكنيست لا يعني بتاتاً الارتباط جوهرياً بسيدنا محمد أو عيسى أو موسى. ذلك أن هؤلاء الأنبياء هم شخصيات مثَّلَت التفسير العقلاني الأكثر تطوراً وارتقَت بالسلوكيات الأخلاقية إلى أقصاها في عهدها. لذا، فإنّ تَمَثُّلهم واحترامهم حقاً يعني تثمين قوة العقل والأخلاق الحرة الأكثر رقياً في عصرنا، والعمل بها أساساً، وتطبيق متطلباتها.

٢- إن العبادة الحقيقية لا تعني الذهاب إلى الأماكن المقدسة لتكرار الحركات التي فقدَت معانيها نتيجة تكرارها منذ آلاف السنين. بل إنها تعني التثمين العظيم للعلم والحرية والفن، وترتيب شؤون الحياة الاجتماعية والفردية على السواء ارتباطاً بهذه الحقائق. أي أن العبادة العظمى تمر من تمكين العلم والحرية والفن في كافة أبعاد الحياة الفردية والاجتماعية.

٣- لم تَعُد شروط الإيمان تقتصر على المعايير التقليدية كالصلاة والصيام والزكاة والحج وكلمة الشهادة وتقديم الأضحيات. بل إنها تعني بلوغ الفلسفة الديالكتيكية في العلم، والتحلي بوعيٍ وسلوكياتِ الحرية في الأخلاق، والوصول إلى مفهوم الجماليات في الفن؛

وتعني تلبية متطلبات كل ذلك من الأعماق وبصدق. أما تعليمُ السبيلِ المؤدية إلى تحقيق ذلك في الجامع والكنيسة والكنيست، والريادة له، فيمثّل العبادة الحقيقية. ذلك أن جوهر العبادة الإبراهيمية ينطلق من اعتماد هذه الحقائق أساساً في كافة العصور. أما خنقُها وحصرها بحركاتٍ وسلوكياتٍ بلا معنى، فيعني السقوط في وضعٍ مخالفٍ ومناقضٍ لجوهرها.

٤- تتجسد المهام العملية والملموسة في هذا السياق في السعي إلى التَعلُّمِ العميق للمعايير الحضارية الديمقراطية في هذا الشأن، وفي تسخير كل الطاقات بإيمان قوي وبمهارة لتلبية متطلبات ذلك. بمعنى آخر، يتجسد الالتزام بالدين الإبراهيمي الحقيقي في تذكير الجميع بأن الشرط الرئيسي للإيمان هو تلبية هذه المهام ليلاً نهاراً وكأنها كنايةً عن البسملة وكلمة الشهادة، وفي حثهم على تطبيق ذلك عملياً. فالأديان الإبراهيمية لا تُعِدُّ أحداً أنه ملتزم ومؤمن، دون أن يدرك معناها أو أن ينجح في تأسيسها وعقدِ أواصرها مع الحياة اليومية بأعلى المستويات. أي أن الانتماء الحقيقي إلى الدين الإبراهيمي يعني تَعلُّم الفكرِ العلمي والفلسفي الأعمق في راهننا وعصرنا، واعتبارَ السلوك الحرِّ من أقدس الأعمال، وبلوغ أجمل تعابير الحياة عبر الفن.

٥- لأجل أن يَكون أحدٌ ما صاحب ممارسة عملية فعلية، فلا بد أن يكون عضواً في ثلاث أو خمس منظمات من منظمات المجتمع المدني على الأقل، وأن ينشط في مشاريعِ إنقاذِ التاريخ والبيئة. فأنْ يَكون جميع الأفراد والمجموعات أصحابَ ممارسةٍ عمليةٍ حقيقيةٍ فعلاً، فإنّ هذا يعني أن ينشط الجميعُ في مختلف المجالات ضمن ثلاث أو خمس مؤسسات على الأقل، كلٌّ حسب طاقاته؛ بدءاً من منظمات السلام وحتى منظمات حقوق الإنسان، ومن الأحزاب الديمقراطية إلى الاجتماعات الجماهيرية والمسيرات الحاشدة، ومن اتحادات المرأة الحرة إلى اتحادات الشبيبة والأطفال والمسنّين، ومن أجهزة الإعلام والنشر إلى الاتحادات الاقتصادية والتجارية والمالية، ومن المؤسسات الرياضية إلى المؤسسات الفنية، ومن مؤسسات التعليم الابتدائي وحتى المستوى الأكاديمي، ومن المنظمات البيئية وحتى رابطات حماية الثقافات التاريخية، ومن العلم حتى التقنيات. أما البقاءُ خارج هذه الأنشطة، فيعني العَطالة، وبالتالي العيشَ والموتَ بلا عبادة وبلا إيمان.

٦- لقد تغيرت معاني الحياة مع مصطلحَي الحرام والحلال. فأنْ نَكونَ أصحاب حياةٍ عامرةٍ بالإيمان والحلال والقداسة، هو أمرٌ غير ممكن إلا بإدراكِ العصرِ وفق حقائقنا التاريخية، وبالتمتع بحريةِ التعبير عن لغتنا

وثقافتنا، وباستحقاقنا ثمنَ كدحنا، وبالعمل أساساً بالنظام الاجتماعي والسياسي الذي يُمَكِّن كل ذلك. أما البقاء خارج هذه القيم، أي الافتقار إلى الوعي التاريخي والمعاصر، وعدم القدرة على عيش الوجود اللغوي والثقافي بحرية، والعجز عن نيل ثمن الكدح المبذول، وعدم اتخاذ النظام الاجتماعي والسياسي القادر على تمكين كل ذلك أساساً؛ إن كل ذلك يعني الانحصار في حياةٍ مُحرَّمةٍ ملعونةٍ وبلاإيمان وكأنها القدَر المحتوم. والتقاليد النبوية والشرائع الإبراهيمية الحقيقية تنظر إلى الحلال والحرام وفق هذا الإطار بالتأكيد، وتلبي متطلباتهما بموجب ذلك. وإلا، فإن الجهلَ لمعانيها ولماهيةِ العصر الذي سادت فيه، وأداء العبادةِ وحفظ الأدعية بلغةٍ أخرى؛ هو أمرٌ مخالفٌ لجوهر الدين، ودليل على الخلط بين الإنسان صاحب الضمير والإنسان الدمية، والغوص في مستنقعِ حياةِ الكفر.

٧- لقد وَجَدَ تَبَنّي الهوية الحقيقية لأورفا وجوارها تعبيرَه في هذا الإطار الأساسي وفي قدسية الأديان الثلاثة التوحيدية. وهذا ما يعني العيشَ بالعقل والضمير المرتكزَين إلى الكدح المبدع، وإلى الحياة المشرّفة الحرة بسلامها وجَمالها ووفق معايير الحقيقة والعدالة. أما النطق بكلمة الشهادة، والصلاة والصيام والحج وكل أعمال الخير، فلن تجعل المرء مؤمناً وسائراً على هدى الأنبياء، إلا إذا تصرف وفق متطلبات هذا التعريف. ولن

يكسب الجهادُ الحقيقيّ معناه، إلا ببذل الجهود الحثيثة على هدى ذلك. أما الأنشطة التي تقوم بها الطرائق الدينية، الرسمية منها وغير الرسمية، فلا تدل على شيء سوى الجهالة والسجود للنماردة العصريين ولأصنامهم المتواجدة في كل المستويات. أي أن كلمة "نمرود" هنا تحتل مكانها بدل مفردة "الله". فالقيم الحالية المعبودة باسم الله تُعَبِّر تماماً عن النزعة النمرودية في عصرها، ويكمن الجهل الأكبر في اعتبار الواقع النمرودي الراهن نظاماً إلهياً. أما أصحاب الذهنية والممارسات الدينية الأكثر تخلفاً حتى من الكهنة السومريين، والذين يخدمون الظالمين والمستغِلين، ولكنهم يتباهون بحفظ الكثير من الأدعية والسوَر القرآنية، وبالإكثار من ذِكرِ الأحاديث النبوية، ويؤدون عباداتهم الأخرى؛ لا يمكن لهؤلاء إلا أن ينتموا إلى طائفة نمرود وأبي جهل. إن الالتزام الحقيقي بقدسية الدين الإبراهيمي يتجسد في القدرة على تحطيم أصنام هذه الجهالة المستمرة منذ قرون، وذلك بالعمل وفق الإطار الذي رسمناه، أي باتخاذ المقاييس الحضارية الديمقراطية اللائقة بتاريخ الكدح والحرية أساساً، وبالتحلي بالوعي وممارسة الدفاع المشروع. بمعنى آخر، لا يمكن الحديث عن السير على درب الأنبياء والشخصيات المقدسة، ولا يمكن التمتع حقاً بالإيمان القويم والأخلاق

الفاضلة؛ إلا بالنظر إلى النماردة والأصنام العصريين من هذا المنطور، والقيام باللازم تجاه ذلك.

تأسيساً على ذلك، وكمسؤول أول عن PKK وعن نمط الحياة في أورفا، فإني واثق من أنني قدمتُ نقدي الذاتي تجاه التاريخ وطرحتُ دفاعي تجاه العصر الحالي بشكل صحيح. وكلي أملٌ بأن أكونَ قد سلطتُ الضوء على الطريق الذي أراه مفيداً وضرورياً لأجل وطننا والمنطقة والبشرية، وبأن الحياة ستكون أكثر تسامحاً وصفحاً وحريةً من الآن فصاعداً، وأن الكدح سينال قيمته التي يستحقها، وأن التاريخ سيكون شاهداً حقيقياً في هذا الشأن. وعلى هذا الأساس أقدِّم احترامي للجميعِ وأدعوهم إلى القيام بما يقع على عاتقهم.

١٠ تموز ٢٠٠١/سجن إمرالي

عبدالله أوجالان